نشأة الفكر التعاونى وتطوره

دكتور
كمال حمدى أبو الخير
قسم ادارة الأعمال بكلية التجارة جامعة عين شمس
عميد المعهد العالى للدراسات التعاونية والادارية

مكتبة عين شمس
٤٤ شارع القصر العينى - القاهرة

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

« الحكومة فى المجتمعات الرأسمالية قوة
منظمة من فريق الأغنياء لنهب الفقراء »

وليم جودوين

تمهيد

ان مساوىء الرأسمالية ، وفشل المذهب الحر ، فتح المجال لكثير من آراء الاشتراكيـــة التى تعمل على ازالة مساوىء الرأسمالية ، ومما لا شك فيه أن الرسالة العميقة للتعاون تعبر عن الروح الضرورية للمجتمع، روح تضافر الجهود دون استغلال فرد لأخيه ، روح العدالة والجزاء من جنس العمل ، روح الشعور بالتضامن الاجتماعى الذى يبنى دولة تؤمن برسالتها الانسانية الحيوية فى عالم يســوده التوتر والصراع المذهبى ، وتستعمر فيــه الدول الرأسمالية شــعوبا مستضعفة تتطلع الى التحرر والعيش الكريم .

والله ولى التوفيق .

كمال حمدى أبو الخير

المبحث الأول

الثورة الصناعية وآثارها

مقـدمة :

ليس من اليسير تحديد فترة معينة يمكن أن نعتبرها ابتداء الثورة الصناعية فان الانقلابات التى طرأت على الاقتصاد الصناعى فى بريطانيا وغيرها من الدول الأوربية جاءت نتيجة لعـدة اختراعات هامة ظهـرت متتابعة وكان كل منها يترك أثرا تطـوريا ، ويفسـح المجال لمزيد من الاختراعات والتطورات المكملة ، ولكن قد يجوز القول بأن آثار التصنيع بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم تتابع التطور الذى قلب اقتصاديات ومصائر الدول الصناعية طوال القرن التاسع عشر[1].

على أن ظهور التغيرات السريعة فى الصناعة التى جاءت نتيجة هذه الاختراعات المتتالية كان أبرز ما يكون فى الطاقة الانتاجية ، وهذه بدورها قلبت نظام الانتاج الحرفى،كما قلبت النظام الاقتصادى فى صميمه ، وتغيرت نظم الصناعة والعمالة والتمويل والتسـويق ، وترتب على ذلك تغـير فى التكوين اجتماعى ، وفى القوة النسبية للدول الصناعية ، مما أدى بالضرورة الى تطور فكرى فى المجتمع ، هذا بدوره كان سببا فى تلك المرحلة السوداء

(١) See «The relevant chapers in L.C. Knowles» The Industrial and Commercial Revolution in Great Britain (London 1935).

وكذلك دكتور جمال الدين سـعيد : التطور الاقتصادى فى العـالم (١٩٥٨) صفات ١١٢ — ١٨٠ ، ودكتـور حسين كامل سليم : تاريخ أوربا الاقتصادى (١٩٥٣) مطبعة جامعة القاهرة صفحات ١٤١ — ١٥ الخاصة بانجلترا .

من تاريخ الدول الرأسمالية ، وهى مرحلة الاستعمار الاحتلالى والاقتصادى والسياسى .

لقد كان أظهر الاختراعات « الانقلابية » فى صناعة النسيج ، فكانت الأنوال « الحديدية » ذات طاقة انتاجية كبيرة ، ولكنها فى الوقت ذاته كانت تحتاج الى طاقة محركة أكبر من طاقة الانسان ، فكانت الآلات تقام أول الأمر بالقرب من مساقط المياه كما كانت تتطلب اقامة مصانع كبيرة وبذلك قضى على الأنوال اليدوية ، وعلى النظام الانتاجى الحرفى ، وتولدت مناطق صناعية جديدة جذبت اليها العمال من الجهات المجاورة لها ، وظلت هذه الآلات الحديثة تدخل عليها التحسينات المتتالية على ضوء التجارب حتى صارت سهلة الاستعمال ، ميسورة المراحل ، لا تحتاج مراقبتها الى عامل ماهر ، بل يمكن ادارتها بواسطة النساء والأطفال وقد حدث هذا فعلا ، وكان حدوثه سببا فى وجود مرحلة اجتماعية تعد من أسود النقط فى تاريخ انجلترا الصناعى ، فقد بلغت القسوة بأصحاب الأعمال ورؤوس الأموال من الانجليز الى درجة أنهم كانوا يستخدمون أطفالا فى سن الخامسة والسادسة فى مصانع خالية من أبسط المبادىء الصحية لمدد تتراوح بين اثنى عشر وست عشر ساعة يوميا .

عصر البخار :

ثم جاء دور البخار والاختراعات البخارية ، فزادت حدة الانقلاب الصناعى والاجتماعى ، وأصبحت مواطن الصناعة الجديدة هى تلك القريبة من مناجم الفحم ، فنشأت المدن الصناعية الجديدة المكتظة بالمصانع والعمال كما أدى ازدياد الطلب على الفحم الى تشغيل عدد كبير من الأطفال بالمناجم فى ظروف سيئة وبأجور هزيلة ، مما زاد الحالة الاجتماعية سوءا . وكانت الاستفادة من تلك المخترعات تتطلب أن يكون نطاق الانتاج كبيرا ، كما

أنها كانت تتطلب استعدادا لاقامة المزيد من المصانع لانتاج المعدات الآلية (أى الصناعات الثقيلة) اللازمة ، وهـذه كانت أكبر من حيث نطاقها ونفقاتها الانشائية .

ان الانتاج الكبير لكى يحقق مزاياه لا بد أن يستفيد من وفورات التسويق كما يفيد من الوفورات الفنية والمالية والادارية والتكاملية ، لزاما أن يدعم التطور الصناعى تطور فى وسائل النقل وبخاصة بعد ادخال البخار فى السكك الحديدية وفى النقل البحرى والنهرى ، وكان لكل هـذا اثره الواضح فى القضاء على العزلة الاقتصادية للمناطق النائية ، وفى فتح اسواق واسعة جديدة محليا وخارجيا ، مما زاد المنتجين ثراءا فوق ثراء ، وخلف فى المجتمعات الصناعية ذلك النظام الصناعى الذى نعرفه اليوم وتلك العلاقة الاجتماعية بين أصحاب العمل من الرأسماليين والعمال الأجراء[1] .

ظهور طبقات جديدة :

والانتاج الكبير يتطلب تمويلا فى نطاق ضخم ، واقتصادا نقديا يستجيب لحاجاته ، وأسواقا كبيرة تتلقى منتجاته ، وقد قامت الأسواق ووضعت النظم المصرفية التى تساعد على تمويل المشروعات الكبرى . وكانت هذه وتلك وما اليها من الحقائق المعروفة مما أدى الى ظهور طبقات جديدة فى المجتمع بعضها آلت اليه السيطرة الصناعية والتجارية . وبعضها وهى الطبقة العاملة هوت الى الضعف المادى والمعنوى ، فكان الأجير لا يفكر مجرد تفكير فى ادخار رأس مال متواضع ينشىء به مشروعا صغيرا يغنيه عن العمل فى هذه المؤسسات التى يشقى فيها ، وبمعنى أوضح ، جعلت التطورات الصناعية من العامل « مجرد عنصر انتاج » يعتمد فى

---

(١) F. Hall and W.P. Watkins, Cooperation-Cooperative Manachester 1937, pp. 22 and 23.

الحرية وعدم تدخل الدولة كان لازما لتحقيق ذلك التطور الشامل والتقدم السريع فى اقتصاديات بريطانيا . فحرية الانتاج وحرية المخاطرة ، وحرية كسب عيشه على « رغبة وميول وتصرفات أصحاب الأعمال »(١) . وهذه نقطة كان لها أهميتها فيما أصاب الحركة التعاونية من النجاح أو الفشل .

وهكذا أصبح أصحاب الأعمال طبقة جديدة نخلع على المجتمع ظاهرة جديدة ، طبقة لا تقاليد لها ولا خبرة ولا فكر سياسى أو عقائدى فلم تكن كطبقة الملاك الزراعيين أو طبقة النبلاء ، أو طبقة رجال الكنيسة تعرف بقيم ومثل وتقاليد معينة لها ، وان كان لهذه المثل والقيم مساوىء تحدث عنها التاريخ . ولكنها كانت طبقة أوجدتها المصادفات والظروف وأضفى عليها الرخاء والثراء طابع النفوذ والسلطة والسيطرة والتحكم ، فانضمت الى الطبقة المميزة الحاكمة ، وتفاقم أمرها حتى أصبح من العسير من وجهة القومية وقف هذا التيار الجديد من طغيان نفوذ الرأسماليين على الحياة الاجتماعية والسياسية ، لأن قيادة هؤلاء الأفراد للثورة الصناعية قفزت بانجلترا الى القمة العالية بين دول العالم ، وحققت لها مكاسب استعمارية واقتصادية جعلتها أقوى الدول الكبرى فى القرن التاسع عشر .

فلسفة المذهب الحر والتطور الصناعى :

وفى تلك المرحلة من التطور الصناعى وجد رجال الأعمال فى فلسفة المذهب الحر الذى نادى بها آدم سميث سندا قويا ، فظلوا فترة طويلة يتذرعون بالحرية الاقتصادية لمنع تدخل الحكومة حتى فى النواحى التشريعية اللازمة لازالة مظاهر الاستغلال السىء الذى كان يجحف بالطبقات الضعيفة ، ولكن الأمانة العلمية تحملنا على الاعتراف بأن مذهب

(١) المرجع السابق صفحة ٣٣ (هول — واتكنز Hall and watkins)

المصانع الجديدة والاستفادة من الاختراعات المتتابعة • وحرية التنقل من حرفة لأخرى ومن طبقة لأخرى ، وحرية التسويق والمنافسة من أجل كسب الأسواق ••• كل هذه حريات ضرورية لنجاح الثورة الصناعية(١) • بل ان انتشار المذهب الحر فى تلك المرحلة من تاريخ الدول الأوربية بصفة عامة هو الذى جعل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى ظهرت مقبولة من حيث أهدافها الايجابية ، ولو تدخلت الحكومات مثلا لحماية العمال من البطالة واستجابت لرغبتهم فى منع ادخال الآلات الحديثة التى توفر الايدى العاملة ، ولو تدخلت لمنع اقامة مشروعات انتاجية كبيرة ، أو لمنع الأفراد من تمويل المشروعات العامة كالسكك الحديدية وبناء السفن ، أو لتحديد أرباحهم لحال ذلك دون استثمار قدرتهم الادخارية وعاق التكوين الرأسمالى المحلى والاستثمار الخارجى عن متابعة حركته ونشاطه، وكان من لمحتمل ألا يتحقق ذلك التقدم الهائل الذى رصلت اليه الدول فى أعقاب الثورة الصناعية •

بيد أن النقطة السوداء فى تاريخ المذهب الحر كانت فى أنه اتخذ ذريعة للوقوف دون أى تدخل من الحكومة فى أى ناحية من نواحى النشاط الاقتصادى فكان بذلك عائقا لكل تشريع يهدف الى اصلاح مساوىء الرأسمالية الصناعية وكان بذلك عاملا على تمادى الأقلية الرأسمالية الصغيرة فى استغلال الغالبية الأجيرة وهناك جانب آخر من جوانب هذا المذهب يؤخذ به ويحاسب عليه — وهو عدم تدخل الحكومة لفرض ضرائب عادلة على الدخول الكبيرة — فقد كان هذا أكبر عائق للحكومة فى سبيل العمل لتخفيف وطأة البؤس والبطالة والتدهور الاجتماعى التى

(١) فى تبرير المذهب الحر — أنظر : Irene Collins, Liberalism in Nineteenth Century in Europe (London 1957), pp. 3-23.

كانت تئن تحتها الملايين من طبقة الأجراء ، حتى انه فى الوقت الذى كانت تتحقق فيه لبعض الأفراد مئات الألوف من الجنيهات كأرباح سنوية ، كانت ميزانية الدولة تعجز عن مواجهة الانفاق الاجتماعى اللازم لاعانة الأسر البائسة من العاطلين ، أو للانفاق على مشاريع التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية الأخرى اللازمة لتحقيق العدالة المنشودة فى ظل النظام الذى كان يطلق عليه اسم لديمقراطية ••• ولكن هذا المذهب الحر أخذ من الديقراطية ناحية واحدة — هى الحرية — واكتفى بتطبيقها لصالح طبقة واحدة هى الطبقة الرأسمالية !!



المبحث الثانى

ظهور الأفكار المناهضة للرأسمالية

سوء معاملة أصحاب الأعمال للعمال :

يعتبر تاريخ التقدم الصناعى فى أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر تاريخ الطموح والمغامرات لتحقيق الرفاهية الشخصية بمعدل سريع ، وقد ساعدت على ذلك المبتكرات التى توالى ظهورها ، فتحققت الثروات وتكدست ملايين الأرباح عند الأفراد دون أن تظفر بوزن أو تقدير الآثار المترتبة على الروح الفردية ، وان الفكر الانسانى اليوم ليذهل من الظروف التى كانت تسود فى الأمس ، ويدهش من سوء المعاملة التى كان يحكم بها أصحاب العمل والعمال وبخاصة النسوة والأطفال كما يدهش من الموقف السلبى الذى كانت تقفه الحكومات وقتذاك ازاء تلك الأحوال ومن عدم اكتراث المتعلمين بما كانت تعانيه الطبقة العاملة من شقاء وحرمان •

وقد بلغ الاستغلال أشده فى أوائل الرأسمالية الصناعية ، وبخاصة فى صناعة النسيج فرؤيت ورويت مشاهدات وحقائق أغرب من الخيال • اذ كان البؤس يلحق بالآلاف المجمعة داخل المصانع — أو خارجها ان كانوا عاطلين — فالأجور ضعيفة ، وأثمان المواد الغذائية مرتفعة نتيجة لتدهور الانتاج الزراعى ، والمدن الصناعية تكتظ بالعمال ، ومع هذا لا تسير حركة البناء بنفس السرعة التى يتجمع بها الأفراد فى المدن الصناعية • والمالية العامة عاجزة عن ايواء من لا يجدون المأوى وتغذية من لا يجدون

الغذاء ، فكيف تفكر الحكومات فى بناء منازل لمن يشتغلون فى المدن المكتظة بساكنيها ، وكيف تفكر فى الاصلاح اذا كان « الأليت » الحاكمون(١) هم أفراد الطبقة الجديدة من الرأسماليين الذين ينافسون طبقة الملاك الرزاعيين فى الحكم ، وكيف يكترث « الأليت » الحاكمون بغيرهم اذا لم يكن هناك فكر ثورى أو صوت قوى يرتفع بالمعارضة ويلعب دورا فى التأثير على الأداة التشريعية ؟

استمر الاستغلال الرأسمالى على هذا الوضع حقبة من الزمن ... الفوارق المادية صارخة والفوارق الاجتماعية فى غاية منتهاها ، والفوارق فى النفوذ تقوم على الفوارق فى الثراء فالأغنياء هم كل شىء ، والفقراء هم الغالبية الكبيرة لا شىء ومتى لجأ العمال الى القانون وجدوه ضدهم ، لأن القوانين التى صدرت عام ١٨٠٠ وعام ١٨٢٥ فى انجلترا كان الباعث عليها هو الخوف من الثورة ، فكانت تحرم على العمال التكتل والتجمهر لمناقشة مصالحهم ، بينما كان أصحاب الأعمال يتكلمون ويتباحثون فى الوسائل التى تمكنهم من السيطرة التامة على العمال(٢) . ولم يكن للعمال يد ولا مصلحة ولا صوت فى أى تشريع من التشريعات التى كانت تصدرها الطبقة الحاكمة(٣) .

واذا كانت المزايا العادية للثورة الصناعية فى مراحلها الأولى والوسطى قد غطت الى حد ما على المساوىء الصارخة التى نجمت عنها ، فان تلك المساوىء بدأت تبرز للمجتمع بوضوح حين بدأت الرأسمالية الانجليزية

---

(١) يقصد بها الطبقة الممتازة أو المميزة التى تستأثر بالحكم (Elite)
(٢) هول — وانكنز (Hall and Watkins) المرجع السابق صفحة ٣٥ — ٣٧
(٣) لم يحظ الانجليز بصوت فى جانبهم داخل البرلمان قبل ١٨٦٧

تواجه الأزمات . فقد كانت هناك فترة شاهدت نشاطا كبيرا فى الصادرات فتخلصت «ورشة العالم» من فائض كبير جدا من انتاجها المحلى ، وأصبحت تعتمد كثيرا على استيراد الخامات والمواد الغذائية من الخارج . ثم بدأت الأزمات الدورية تهدم فى صرح الاقتصاد البريطانى ، وتبعتها تقلبات فى الأسواق الخارجية نتيجة لعدم الاستقرار السياسى والحروب والتقلبات الزراعية ، كما بدأت دول أوربا الصناعية تنافس بريطانيا فى الأسواق الخارجية ... وبهذه العوامل كلها زادت الآثار السيئة للرأسمالية الصناعية ، فتفاقمت مشاكل البطالة وظلت دون حلول (لأن التغير الصناعى كان سريعا وموجات الكساد الدورية شديدة الأثر نظرا لأنها كانت تصحب فورات رواج عنيفة) وتناقصت الدخول الحقيقية مع تقدم سنى الثورة الصناعية لارتفاع أثمان السلع الضرورية ، فاذا أضفنا الى كل هذا أن العمال كانوا محرومين من التكتل والتجمع ، كان من الطبيعى أن تتوقع قيام موجات من التذمر ، وظهور آراء تنادى بضرورة تغيير الحال[1] .

التفكير فى ازالة مساوىء الرأسمالية :

ولكن : من الذى يصلح الحال ؟ وما الذى يمكن عمله لازالة أو تخفيف حدة البؤس الجاثم على العمال الذين أنهكتهم كثرة العمل وسوء التغذية ؟ ان المطالبة بتقليل ساعات العمل ورفع الأجور كانت تجد المقاومة بدعوى زيادة التكلفة ، والنقابات العمالية الأولى كانت ضعيفة لا يسمع لها صوت ولا تستطيع أن تقف أمام جبروت المقاومة من أصحاب الأعمال، وأمام التشريعات الحكومية التى كانت تعتبرها خلايا أو نوايات ثورية وقد ظهرت الى جانب ذلك آراء وأفكار دينية « تدعو الناس الى الايمان بالله

(١) انظر دكتور مصطفى الخشاب . المذاهب السياسية (لجنة البيان ١٩٥٣) صفحات ٩٤ — ٩٩ .

وارتضاءما كتبه لهم وتمنيهم بالنعيم المقيم فى الآخر » .. ومن البديهى أن تكون هذه الآراء موضع سخرية واستهزاء لأنه ليس أقرب الى الكفر بالدين من رجل عار جائع يرى الثراء ينساب من حوله ، بينما يتلوى هو من ألم المرض والفقر ، ثم يجد رجال الدين يتناسون أهم شىء فى كل دين . وهو العدالة الاجتماعية ، ثم يعدونه ويمنونه بالنعيم المقيم اذا أخلد الى الهون والسكون ورضى بما قدر له أن يكون .

وقد نادت طائفة من المصلحين الدينيين بضرورة ازالة المساوىء التى خلفتها الرأسمالية الصناعية على أن تتولى الحكومة هذه المهمة وتعاونها فى ذلك الكنيسة(١) . ولكن صدى هذه الدعوى كان خافتا ضعيفا لأن المشاكل كانت أخطر من أن تحلها المسكنات عن طريق الخدمات الخيرية . ومن ناحية أخرى كانت الانفعالات الثورية قد بدأت تعتمل فى أذهان بعض العمال وتولد فى نفوسهم الرغبة فى تحطيم الآلات أو تخريبها . وتحثهم على الاضراب العام لكى ينهار النظام الرأسمالى(٢) ، ولا شك أن فريقا من العمال قد يطرب للخسائر التى تلحق بالرأسماليين نتيجة الاضراب والتخريب ولكن مثل هذا الشعور الانفصالى والتكتيك الثورى الهدام لا يجدى فى حل المشكلة . بل يزيد من حدة الاصطراع الطبقى أو يضعه موضع الواقع اذا كان لا يزال مجرد أفكار كامنة .

ومن المفكرين ما أخذ ينهمك فى مهاجمة لرأسمالية من ناحية أخلاقية فنادى بأن أصل البلاء هو التمويل ورأس المال ، وبأن فائدة رأس المال هى بمثابة الربا الذى لا تجيزه الأديان ومن ثم كان مفتاح الاصلاح — على

(١) أنظر جاك بيلى J. Bailey : The British Cooperative Movement

(٢) أنظر « روح السياسة » لجوستاف لوبون — ترجمة عادل زعيتر (القاهرة العصرية ١٩٣٥ صفحات ٢١٢ — ٢١٩)
(Gustave Lebon : Psychologie Politique).

حد قولهم — فى الغاء فوائد رأس المال ، لتنتفى بذلك مطامع الرأسماليين وتنتفى معها شرور دكتاتوريتهم(١) وسيطرتهم على مرافق الحياة ، على الرغم مما تحمل مداولاتها الأخلاقية والاجتماعية من أفكار صائبة ، لم تكن الحل العملى لمشكلة قائمة بالفعل تحتاج الى حل ايجابى حاسم قوامه العمل لا مجرد النظريات •

مساوىء الرأسمالية والفكر الاشتراكى :

ومن المعروف لكل دارس وباحث فى النظم الاقتصادية والسياسية ، أن مساوىء الرأسمالية وفشل المذهب الحر فتح المجال لكثير من الآراء الاشتراكية فان هذه الآراء وان كان يبدو عليها الاختلاف فى الأسلوب والتطبيق ، تتلاقى فى هدف مشترك وهو تحويل عناصر الانتاج من ملكية خاصة الى ملكية جماعية ، ويقول دعاة الاشتراكية فى الترويج لآرائهم أن ما يهدفون اليه هو احترام الصالح العام بقدر أكبر مما تسمح به الطبيعة البشرية ، ويعنون بذلك أنهم لا يؤمنون بأن الفرد مستعد من تلقاء نفسه لأن يتنازل عن مزايا يحققها له مركزه فى المجتمع الطبقى القائم على أساس الملكية الفردية ، وأنه لن يخضع من تلقاء نفسه مصلحته الفردية للمصلحة العليا الجماعية • ولذلك ترمى النزعات الاشتراكية على اختلاف طرقها وأساليب التعبير عنها الى اخضاع الرأى الفردى لمصلحة المجموع ، ويستوى فى ذلك الاشتراكية الثورية التى ترى استحالة تحويل ملكية عناصر الانتاج الى ملكية جماعية دون الالتجاء الى أسلوب العنف ، والاشتراكية التطورية التى ترى تحقيق الهدف عن طريق الجهاز التشريعى

(١) See : Erza Pound and American Facism : by Victor C. Terkiss, Journal of Politics, Vol 17, 1955, pp. 180-197.

فى الدولة وتعويض الملاك عما يمتلكونه من موارد انتاج تنتقل ملكيتها الى الدولة تعويضا عادلا(١) .

وبين هذه لأفكار وتلك ، بين أنواع الصراع الفكرى والاصطراع الطبقى الذى انتاب بعض الدول ، بين اختلاف المنادين بالاصلاح والمعارضين للتغيير ، بين المحبذين للتطور الاشتراكى والمناهضين لتدخل الدولة ، بين المقدسين للملكية الفردية والمعارضين لها ... بين هذا التباين الاجتماعى الصارخ فى الثراء الفاحش من جهة والفقر المدقع من جهة أخرى .. فى وسط هذا الواقع المادى وما بين تلك الاختلاجات النفسية والفلسفات الفكرية ، ظهرت فكرة التعاون الاقتصادى السلمى على أساس البناء لا الهدم ، وعلى أساس التحرر من كل ألوان الاصطراع الفكرى والطبقى .

(١) See : Twentieth Socialism : by Socialist Union.
كذلك الدكتور مصطفى الخشاب — المرجع السابق صفحات ١٠٤ — ١٠٥ .

المبحث الثالث

بدء التفكير فى التعاون

انجلترا :

قامت فى انجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر عدة محاولات لانشاء جمعيات تعاونية صغيرة ، كمخبز هنا أو « ورشة » صغيرة هناك وكان العمال يشتركون فيها عن طريق تجميع مواردهم فيها والمشاركة فى العمل والكسب ولكنها كانت محاولات ضعيفة ، قصد بها حل مشاكل معيشية مباشرة تتصل بالكفاف من العيش بالنسبة لفريق معين ، ولم يفكر أحد من أعضاء هذه الجمعيات الصغيرة فى تغيير النظام القائم ، ولا حتى فى مجرد كيفية التغيير .

أما البدء الحقيقى لحركة تعاونية ، فقد كان عندما حاول فريق من الرجال تكتيل جهودهم لايجاد نظام يحل محل الرأسمالية الطليقة ، بحيث تنتفى فيه جميع مساوىء الرأسمالية ولا تنتفى فيه فكرة الملكية ، وبحيث يكون أسلوبه ديمقراطيا بكل معانى الكلمة ، وجماعيا من حيث تقدير مصلحة الجماعة على أنها مجموع مصالح الأفراد .

وهذا التعاون الذى فكر فيه الرواد الأوائل ورأوا فيه خير بديل للرأسمالية لم يكن عقيدة معينة أو نظرة جامدة ، وانما محاولة اختبارية وتثبت التجارب صحتها أو عدم صلاحيتها[1] وكانت الرأسمالية وقتذاك

---

(١) S. and gebb : The Consumers' Cooperative Movement, (London 1931), p. 28.

تتـكون من عدة عمليات أو مراحل متصلة (من انتاج أولى الى انتاج ثانوى •• الى تخزين ونقل •• وتجارة جملة •• وتوزيع تجـزئة ••) وقد جاءت هذه العمليات فى النظام الرأسمالى نتيجة للمصادفة الاجتماعية أكثر منها نتيجة للتدبير الانسانى المقصود • فلم يكن هناك من يحدد فى الرأسمالية الحرة من سيكون منتجا للمواد الأولية ، ومن يصنع الخامات ومن ينقلها ومن يبيعها ، ولا من يحدد أين وكيف توزع السلع ، أما فى الفكر التعاونى فان التدبير والتخطيط هما المرشدان اللذان يحققان هذه السلسلة من العمليات •

بهذه المقدمة المختصرة عن الرأسمالية ومساوئها وعن منشأ الفكر التعاونى ، يمكننا أن ننتقل الى الحركة التعاونية فى انجلترا والى دراسة المحاولات الأولى للشخصيات الشهيرة فى تاريخ التعاون حتى نلمس مدى نجاح أو فشل أفكارهم وماذا نصيب التعاون من النجاح أو الفشل فى السنوات التى أعقبتهم •

روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) Robert Owen

أشرنا الى أن المحاولات الأولى للاقتصاد التعاونى كانت تخـدم ظروفا محدودة أو تحل مشاكل فى نطاق ضيق ولعدد صغير من الأفراد ، ولهذا لم تنجح كخطة عامة ، لأن طبيعتها جعلت منها مخرجا مؤقتا ، ولأنه لم يكن قد وجد بعد ذلك الرابط الفلسفى الذى يخلق فكرة اجتماعية تضم كثيرا من ذوى المصالح المشتركة فكان « مبدأ » أو أسلوب التعاون تعوزه الفلسفة الاجتماعية والمحتوى المعنوى الذى يختلف عن المثل والقيم التى كانت تسـير الرأسمالية الحرة وقتئذ وتخضعها لتوجيهاتها ، وقـد اختارت الأقدار روبرت أوين لكى يعرض هذه الفلسفة ويحاول نشرها حتى استحق أن يلقبه المؤرخون بأبى التعاون فى العصور الحديثة ولمـا

كان المقام هنا لا يتسع لشرح تفاصيل جهوده العديدة ، فقد رأينا أن نكتفى بالاشارة اليها ومجرد عرضها مع قليل من تحليل فلسفته ومثله ومدى اسهامها فى بعث الروح التعاونية الحديثة .

كان أوين فى بدء حياته من رجال الأعمال الناجحين ، ولكنه لم يكن من المغامرين الذين يبحثون عن الثراء والشهرة ، بل كان انسانا خيرا هاله ما شاهد فى أواخر القرن الثامن عشر من المساوىء الاجتماعية التى تسببت فيها الرأسمالية ، فاشترى فى عام ١٧٩٩ مصانع للغزل فى مدينة نيولا نارك (على نهر كلايد) ليديرها طبقا لنموذج مثالى رسمه فى ذهنه(١) ، وكان جل همه مساعدة الطبقة العاملة وتحسين حالتها ، عن طريق تخفيض ساعات العمل مع رفع الأجور ، واختيار الأحداث الذين يعملون فى المصنع من ذوى السن المرتفع ، وقد أثبت بذلك أنه على الرغم من ارتفاع تكلفة الانتاج قد استطاع أن يحقق ربحا . ثم أخذت مساعدته للطبقة العاملة تمتد خارج المصنع ، فبنى لهم منازل وأصلح القديم من منازلهم ، وفتح المدارس للأطفال والكبار وكان يحرص دائما على أن يقرن عمله هذا بدعوة رجال الأعمال فى حرارة وقوة الى أن يحذوا حذوه ، ومطالبة المسئولين بالاصلاح الاجتماعى فى شتى النواحى ، ولكنه مع هذا لم يكن ثوريا أو انفعاليا فى مطالبه .

كانت محاولات أوين الأولى محاولات انسانية مثالية . فكانت تجد لذلك جاذبية لدى الكثيرين فى داخل انجلترا وخارجها ، وقد شجع هذا أوين — مع معارضة شركائه — على تحديد الأرباح التى تدفع لرأس

---

(١) B. Potter (Mrs. Sidney Webb) : The Cooperative Movement in Great Britain (London 1904), pp. 120-135.

المال المستثمر(١) وكأنه بذلك كان يحاول أن يخلق علاقة جديدة بين الأرض والعمل ورأس المال فقد كان يعتقد أنه يضع مثلا يحتذى به غيره من الرأسماليين ، ونسى أن الروح المثالية التى كانت تسيره هو لم تكن هى الروح السائدة فى مجتمع غلبت عليه الأهداف المادية ، واستأثرت بمقدراته طبقة أصحاب النفوذ المادى والسياسى •

وكان أوين يعتقد أن شخصية الفرد تكيفها البيئة والظروف المحيطة به — وهو اعتقاد صائب فى رأينا — ولكن بشرط أن تكون الظروف ذات أثر شامل وجزءا جوهريا من بقية المؤثرات الاجتماعية الأخرى • كما كان يعتقد أن النظم التى أدخلها فى مصانع نيولانارك ستوجد مجتمعا صغيرا كاملا ومثاليا • ولما نجح مشروعه فى أول الأمر اعتقد أن التعاون — لا المنافسة الحرة — هو مفتاح التنظيم الصناعى الأمثل ، وظن أنه يستطيع تطبيق نظامه على جميع أنواع النشاط الانتاجى ، وأن المعاملة الطيبة لطبقة العمال باعث قوى يدفعهم الى تحسين كفايتهم ، وأن من الحمق أن يعامل أصحاب الأعمال عمالهم ، بخلاف المعاملة التى اتبعها معهم(٢) •

الى هنا كان وربرت أوين مجددا ومصلحا اجتماعيا ناجحا ، بل لا نبالغ اذا قلنا انه كان المبشر الأول بمبادىء حسن الادارة الصناعية وأسس رفع الكفاية الانتاجية للعمال بالطريقة العملية والسيكولوجية ولكن أوين لم ير فى نفسه مجرد مصلح اجتماعى أو ادارى ناجح ، ترك

(١) جالا بيلى : المرجع السابق صفحة ١٣

(٢) Maragaert Cole : Robert Owen of New Lanark (London 1936), pp. 24-26.

العنان لعاطفته ومثله . ولم يشأ أن يقف جامدا ازاء التطور السيىء الذى آلت اليه الحالة الاقتصادية والاجتماعية وبخاصة بعد الحروب النابليونية، من الفقر والبؤس والاجور المنخفضة والأمرض المتفشية ، وبخاصة بعد أن فقد الثقة برجال السياسة والمسئولين »(١) .

أوين ومفهوم الاعانة :

وهنا تظهر لنا نقطة تحول خطيرة فى فلسفة أوين فقد نادى بأن دفع الاعانات للعاطلين اهدار للكرامة الانسانية ، وضياع للأموال العامة وأن تلك الاموال يمكن استخدامها فى بناء مجتمعات نموذجية لتشغيل هؤلاء العمال وايوائهم وتعليمهم واطعامهم ، وهـذه المجتمعات أو المستعمرات او الوحدات الجماعية Communities تستطيع أن تنتج الغذاء والكساء اللازم لاعضائها ، فتحقق لنفسها الاكتفاء الذاتى بعـد أن تقف على أقدامها ، وبذلك تعفى الخزانة العامة من أعباء الاعانة ، وتوفر المال الذى يمكن استخدامه لانشاء عدد آخر من الوحدات الجماعية ، لا للعمال العاطلين فحسب وانما لجميع العمال(٢) .

على هذا الوضع كان أوين يتصور الخطة اللازمة لاقامة مجتمع رشيد منظم يقوم مقام نظام الرأسمالية الحرة وكان يتخيل أن مستعمراته التعاونية الصغيرة سوف تنتشر فى جميع أنحاء العالم وكان كلما وجد معارضة من « الأليت » الحاكمين لصيحته ومطالبته بالتشريعات الاصلاحيـة ازداد اقتناعا بفكرته واندفاعا الى التحمس لها(٣) . ولم يعد هذا الرائد الأول

(١) Jack Baily المرجع السابق صفحة ١٤ — ١٥

(٢) مارجريت كول . المرجع السابق صفحات ٣١١ — ٣١٥

(٣) باتريس بوتر (B. Potter) المرجع السابق صفحة ٣١١ — ٣١٥ .

للفكر التعاونى أن يجد مؤيدين لآرائه ، وخاصة من قاموا بشتى المحاولات لتطبيق مبادئه ، سواء بكامل وضعها الذى تصوره أوين وبنى عليه تصميمه ، أو مع تعديلات اقتضتها التجربة العملية .

آراء أوين ونظرياته الاجتماعية :

نشر روبرت أوين(١) فيما بين سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨١٦ أربع كتيبات عنوانها « نظرة جديدة الى المجتمع » New View of Society ضمنها آرائه ونظرياته الاجتماعية .

تكلم فى المقالة الأولى عن أن الانسان لا يمكن أن يكون حسن النيـة أو سيئها بالسليقة ، أو أن الذكاء والغباء وغير ذلك من الصفات تكون موروثة فيه . انه ينكر ذلك ويرى أن تطبيق الوسـائل السليمة جدير بخلق المواطن الصالح ، ومن أجل ذلك نراه ينادى بأنه يجب على السلطات الحاكمة أن تقيم المشروعات المناسبة لتعليم(٢) الشعب وتدريب الأطفال على العادات الطيبة منذ حداثتهم ، واحاطة صحتهم وأخلاقهم وعاداتهم بعناية خاصة وسياج متين والى حسن الانتفاع بعملهم .

وفى الثانية وصف التغير الكبير الذى حدث فى مصنعه بنيو لانارك New Lanark — أولا تحت ادارة ديفيد ديل David Dale ثم تحت

---

(١) Cooperation F. Hall and W.P. Watkins, Cooperative Union

(٢) يرى بعض الكتاب ان أساس « الأوينية » Owenism — قائم على أساس نظرية التعليم كوسيلة لتكوين الأخلاق والحصول على السعادة فان أوين مؤمن كل الايمان بقوة التعليم وقدرته فى توجيه شئون العالم نحو الرفاهية . يرجع الى
The Life of Robert Owen, by G.D.H. Cole : Macmillan and Co, Limited, London 1939, p. 126.

ادارته وكيف أنهما توصلا الى استئصال شأفة الآفات الاجتماعية التى كانت تسود وقتئذ ، وكيف أن ذلك أعطى أوين الثقة والأمل فى القيام باصلاح اجتماعى عن طريق اقامة مشاريع ينظمها جميع الأشخاص على اختلاف أحزابهم .

وفى كتيبه الثالث شرح النظـــام التعليمى الذى أقامه بمصـــنعه بنيولانارك للأطفال والبالغين .

وفى كتيبه الرابع ذكر أن سياسته ترمى الى عدم التدخل فى حقوق الملكية بمصنعه ونادى بوجوب اصلاح الكنيسة والقوانين التى تحكم بيع المخدرات ووقف أوراق اليانصيب الحكومية ومراجعة قانون الفقراء .

ولم تقف أعماله وجهوده عند هذا الحد بل رفع صوته عاليا سنة١٨١٧ مستصرخا نواب الأمة أن يعملوا لخير الأمة ، وأهاب بهم أن يبحثوا عما أصاب العمال فى أرزاقهم وأولادهم من جراء الآلات الصناعية ، واستبداد أصحاب المصانع بهم وقدم لمجلس النواب تقريرا ضافيا عن قانون الفقراء Poor Law طالب فيه بتحديد ساعات العمل وتحريم قبول الصبية فى المصانع قبل سن العاشرة — وانشاء صناديق للتوفير خاصـــة بالعمال ، وتنظيم مخازن لتموينهم ، وأن يمتلـــكوا الآلات والمصانع ، وأن تقسم الناس الى مجموعات صغيرة تتضمن كل مجموعة منها عددا يتراوح بين ٥٠٠و٢٠٠٠ شخصا ، وأن يستبدل نظام المعيشة الفردية بنظام مشترك ، وأن توزع الأعمال بينهم بحيث يشتغل كل واحد منهم فى العمل الذى يصلح له ، وبذا يصبح الناس فى مجتمع واحد يتعاونون على أداء لوازمهم واحتمال عبء معيشتهم ككتلة واحدة يتقاسمون الخير والشر فى ظل المحبة والاخاء ، وناشد الحكومة والبرلمـــان العمل على تحقيق هذه الفكرة —

وقوبل تقريره من أعضاء المجلس بالعناية التامة وعلقت عليه الصحف وقتئذ بمقالات ضافية .

كان أوين يؤمن بامكان تحسين الحياة البشرية عن طريق توفير بيئة أفضل ، وزادته تجاربه ايمانا بصواب فكرته — كما أن تجاربه أيضا زادته اقتناعا بعبث محاولة الاعتماد على روح العطف الأبوى لحمل أصحاب الأعمال على تعديل الأوضاع اذا أعوزتهم الارادة اللازمة — ومن هنا استقر فى ذهنه وقرارة نفسه أنهم لا يملكون كذلك القدرة على التغيير .

وفى يناير سنة ١٨٢١ ظهرت جريدة الايكونومست Eonomist وهى جريدة أسبوعية كان يحررها جورج ميدى George Mudie الذى أخذ على عاتقه توضيح مشروعات وأفكار روبرت أوين لتحسين أحوال الطبقة العاملة — وبذلك ازدادت تعاليمه وضوحا — غير أن هذه الجريدة توقفت عن الظهور بعد اثنا عشر شهرا من تاريخ صدورها .

وفى أكتوبر سنة ١٨٢٤ أنشئت جمعية لندن التعاونية London Cooperative Society وكان انشاؤها على جانب كبير من الأهمية ، رغما عن أن التجارة لم تكن من أهدافها — اذ كان هدفها الدعاية ، فكانت تقيم المحاضرات والمناظرات العامة وأصدرت فيما بين سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٣٠ مجلة تعاونية The Cooperative Magazine وكانت تراسل باستمرار جميع من يهتمون بشئون التعاون وقد أدت هذه المجلة أيضا خدمات جليلة بما أوضحته من آراء روبرت أوين فى الصناعة — وقد أعلنت فى العدد الأول من صدورها أنها لا تزمع الدفاع عن نظريات أوين ولكنها توجه انتباه الجمهور الى مبادىء التعاون المتبادل وعدالة التوزيع والتى يعتبر روبرت أوين من دعاتها الأقوياء المخلصين .

تعاليم أوين والمشروعات التعاونية :

وقد أدت تعاليم أوين الى انشاء كثير من المشروعات التعاونية واكنها فشلت ولم يكتب لها النجاح واضطراد النمو ومن هذه المشروعات •

جمعية لندن التعاونية الاقتصادية :

أنشئت هذه الجمعية سـنة ١٨٢١ وكان من أهدافها ايواء مائتين وخمسين عائلة بما يحتاج اليه من طعام وملبس ومسكن وتعليم مقابل دفع جنيها أسبوعيا •

مجتمع أوربستن Orbiston Community

أنشأ هـذا المجتمع أبرام كومب Abram Combe من أتبـاع أوين سنة ١٨٢٥ برأس مال قدره ٥٠٫٠٠٠ج٠ك مقسم الى أسهم قيمة كل منها ٢٥٠ج٠ك وقد ساهم جورج ميدى الذى كان يحرر جريدة الايكونومست بنصيب كبير فى رأس المال • وقد اشترى كومب مزرعة مساحتها ٢٩٢ آكر[١] Acres وكان ابنه أ ، ج هاملتون متحمسا للمشروع فساهم فيه بمبلغ ١٩٫٩٥٥ ج٠ك•

وقد بنيت الفـكرة على أساس اشتراك لفيف من العمال يتراوح عددهم بين ٥٠٠ و ٣٠٠٠ يعيشون معيشة مشتركة فى مستعمرة واحـدة ويخصص لهم بناء واحد على شكل مستطيل طوله ٦٨٠ قدما وعرضه ٥٠ قدما ــ وارتفاعه أربع طوابق مقسم الى مساكن مستقلة يتوسطه قاعة محاضرات وبه مطبخ واحد ومطعم واحد للجميع ، ويخصص لكل قاعة مسكن من تلك المساكن ، وعلى كل عائلة أن تربى أطفالها الى سن الثالثة

---

(١) الاكر يسوى فدانا تقريبا •

ثم تعهد بتربيتهم بعد ذلك الى المجتمع وعلى الوالدين الاشراف على أطفالهم فى أوقات الطعام فقط .

كما خصص مبنى آخر يتكون من خمس طوابق لاقامة الصناعات اللازمة وتأجير الأرض وما عليها من مبان لأعضاء مجتمع أوربستن ليقوم هؤلاء العما ل بعملية الانتاج لأنفسهم ولحسابهم .

وفى مارس سنة ١٨٢٥ بدأمئات عديدة من الأشخاص من شتى أنحاء انجلترا عملهم الجماعى وقد قبل معظمهم مبدأ الملكية الجماعية والدخل المتساوى عندما شرحها لهم كومب — ولكنهم كانوا حريصين على تجنب المساهمة فى العمل بجهد متساو — فانتشر الكسل بين أفراد المستعمرة وعم بينهم الاسراف وتعودوا القذارة . كما ثبت بالتجربة أن تخصيص مطبخ ومطعم عام للجميع عمل غير ناجح وقد أدى ذلك الى تعثر بعض جوانب المشروع ، ولكن العمل تقدم بنجاح فى مسابك الحديد Iron Foundary ويعزون ذلك الى كفاية العمال واهتمامهم والى تنازل كومب عن بعض مبادئه وتطبيقه بعض الأساليب الجديدة ، وذلك باعطاء العمال نصيب اضافى فى الأرباح يقيد لحسابهم كنصيب فى رأس المال .

وفى أغسطس سنة ١٨٢٧ توفى كومب — فأغلقت القرية أبوابها تحت ضغط الدائنين .

مجتمع رالاهين The Community of Ralahines

يدين مجتمع رالاهين فى وجوده الى زيارة روبرت أوين لايرلنده فى عام ١٨٢٣ فان محاضراته فى دبلن جذبت الى آرائه أحد كبار ملاك الأرض ويدعى جون سكوت فندلير John Scott Vandeleur الذى دفعته المتاعب المستمرة مع المستأجرين الى أن يفكر عام ١٨٣٠ فى انشاء مساكن

ومحلات لمستأجريه اذا أمكن أن ينتظموا فى مجتمع تعاونى • ويتطلب المشروع أن يكون جميع المستأجرين أعضاء فى جمعية رالاهين التعاونية للزراعة والصناعة بحيث يكون فندلير رئيسها • وقد تكونت الجمعية وكان عدد أعضائها أربعين — ولم يكن من بينهم سوى ١٨ رجلا من القادرين والباقى من النساء والأطفال •

وقد تعاونت الجمعية مع فندلير باعتباره المالك على اعطائه سنويا ما قيمته ٩٠٠ ج٠ك وهى عبارة عن ٧٠٠ ج٠ك قيمة ايجار الأرض ، ٢٠٠ ج٠ك للمساكن والأدوات • وقد سكن الأعضاء فى المبنى الجديد الذى أنشىء خصيصا لهم ، ودفعت لهم أجور تعادل الأجور التى تدفع فى المناطق المجاورة وكسب النساء عيشهن عن طريق القيام بما تتطلبه الجمعية من خدمات ، كالنظافة والطبخ وغيرها ، وافتتح محلا لمد الأعضاء بما يلزمهم من الاحتياجات الشخصية ودفعت أجور العمال على صورة بونات يمكن الشراء بها من محل الجمعية ويطلق على هذه البونات « أذونات العمل القابلة للتبادل ، Labour notes exchangeable والأعضاء يستطيعون استبدالها بنقود اذا رغبوا فى الصرف فى أى مكان آخر • وفى خلال سنتين استطاعت الجمعية أن تدفع الايجار وأن تستصلح الأرض وترفع مستوى الرفاهية لأعضائها وقد منع القمار والخمر والتدخين بحكم القانون — ولم يستدع فندلير الا مرة واحدة ليمارس حقه كرئيس فى فصل أحد الأعضاء • وقد تضاعفت العضوية فى الجمعية وفتحت مدرسة لتثقيف الأطفال على الطريقة التى انتهجها أوين فى مدرسته بنيو لانارك •

وفى نوفمبر سنة ١٨٣٣ ووسط هذا النجاح توالت الأنباء السيئة الحزينة بأن فندلير قامر بجميع ممتلكاته وفر هاربا من البلاد مما أدى بدائنيه الى الحجز على جميع ممتلكاته • ونظرا لأن الجمعية لم يكن لها شخصية معنوية من الناحية القانونية فلم يعترف بها كمستأجرة وبالتالى

لم يحصل الأعضاء على تعويضات مقابل التحسينات التى أدخلوها على المزرعة نظرا لأن حقوق المستأجرين Tenant rights لم تكن معروفة فى جنوب ايرلنده فى ذلك الوقت .

مجتمع كوينوود Queenwood

أدار روبرت أوين بنفسه هذا المجتمع بعض الوقت يعاونه أتباعه الذين كانوا ينتظمون تحت اسم « اتحاد جميع الطبقات لجميع الأمم «Association of all classes of all nations» وكان يسمح للعضو الذى يقدم ٥٠ ج.ك بالانضمام للمزرعة .

وفى اكتوبر سنة ١٨٣٩ وفقوا فى شراء الأرض والبضاعة اللازمة . ورغما عن أن روبرت أوين كان يرى أن رأس المال الذى بدىء به المشروع غير كاف ، الا أنه أقبل أن يدير المستعمرة خشية أن يؤدى رفضه الى الانقسام ، وسرعان ما سار العمل بهمة ، فأقيمت المدارس ووزعت الأرض وغرست الحدائق ، وقبل الاتحاد مبدأ السماح للعمـــال من غير المقيمين بالمستعمرة بالاقامة بها وذلك بقصد الاستفادة مما يدفعون نظير المأكل والمسكن . ولكن الجمعية اصطدمت بسلسلة من العقبات نتيجة احتياجها الى رأس المال اللازم ، واستقال روبرت أوين وخلفه آخرون . وما أن حان سبتمبر سنة ١٨٤٥ الا وكانت خصوم المنشأة قد بلغت ٤٠٫٠٠٠ ج.ك بينما اصولها لا ترقى الا ثلث هذه القيمة مما حدا بالدائنين الى التدخل وفشلت المزرعة .

تقرير فلسفة أوين وآثارها :

ويلاحظ أن أفكار أوين بصورتها هذه كانت تنطوى على عنصر من عناصر الشيوعية المسيحية ، ويقصد بها المعيشة الجماعية التى تســيرها

المثل المسيحية واذا كانت نماذج مستعمراته التى أقامها قد فشلت من من حيث كونها أسلوبا جماعيا عمليا للمعيشة التعاونية ، فقد كان هذا الفشل لأنها لم تنشأ من صميم الحاجة الماسة عند هؤلاء الذين اشتركوا فيها • بل كانت من وحى أحلام الداعين للحركة ، وهذا أمر يجب أن يأخذ حظه من الاعتبار والتقدير عند من يحاول أن يوجد مجتمعا مثاليا فى معيشته ، بمعنى أن عليه أن يقدر من هم المشتركون فى هذا المجتمع وقد كان أوين مبالغا فى التفاؤل عندما تصور أن الفقراء والعاطلين يمكنهم أن ينتظموا فى مجتمع تعاونى مثالى ، وفاته أن الفقر والجهل يصحبهما انحطاط فى المستوى الخلقى والنضوج الاجتماعى ، وأن ذلك يستحيل معه • أن ينظم الفقراء والجهلاء فى مجتمع عالى المثل والقيم مالم يصحب ذلك رقابة ودعاية وتوجيه مستمر لبث لروح الجماعية فيهم •

وقد تعددت آراء المؤرخين فى تفسير أسباب فشل محاولات روبرت أوين وانهيار فلسفته ، فمنهم من اتهم الطبقة الحاكمة بأنها كانت السبب فى معارضة مشاريعه وتعطيلها ، ومنهم من أرجع سبب الفشل الى عدم النضوج الاجتماعى وقتئذ ، ومنهم من اتهمه بالمثالية المتطرفة •• ومنهم من ذهب غير ذلك من الآراء ، ولكن هؤلاء المؤرخين كانوا فى بحثهم عن أسباب الفشل يسيرون ضمن اطار مطبق ، وعلى هدى منطق واحد أساسه الاعتراف بفضل الأفكار التى كان ينادى بها أوين ويسعى الى تحقيقها ، والاشادة بمثله العليا وجهوده المتصلة على أساس أنها كانت محاولة دفعه اليها حب الخير والرغبة فى الاصلاح وكان لابد أن ينجح لو كانت الظروف مواتية لنجاحها • وفى غمرة هذا التبجيل والاحترام لآراء أوين أغفل المؤرخون جانبا هاما يعتبر — فى رأيى — العنصر الأساسى الذى تولدت منه أسباب فشل المستعمرات النموذجية التى حاول أوين أن يقيمها ،

ذلك أن المجتمع البريطانى فى تلك الفترة كان يسير بقوة ديناميكية نحو نظام الانتاج الكبير ، وكان الهيكل الاقتصادى الذى أوجدته الثورة الصناعية يستند بكامل قطاعاته على الضخامة فى الانتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة سبيل بعد أن أرست الثورة الصناعية قواعدها الى العودة الى نظام الانتاج الصغير أو النظام الحرفى ، بعد أن اتضحت المزايا العديدة لوفورات الانتاج الكبير .

هذه القوة الاقتصادية الديناميكية كانت تسير بالمجتمع اقتصاديا الى الأمام . وكان من اللازم المحتم أن تدفع معها نظام الحياة الاجتماعية الى الدرجة التى تحقق التجارب بين التنظيم الاقتصادى الجديد وأسلوب المعيشة فاذا أتى انسان وسط هذا التيار الجارف وحاول اقامة مستعمرات صغيرة تهدف الى الاكتفاء الذاتى ، ثم زعم أن هذا هو الأسلوب الأمثل للحياة الاجتماعية والاقتصادية . فانه بذلك يكون كمن يسعى الى تحقيق حركة « رجعية » من الناحية الواقعية ، وهذا ما فعله (أوين) فقد كان يريد العودة الى تقسيم الهيكل الاقتصادى الى قطاعات وجزئيات صغيرة ويقوم كل منها بالانتاج فى حدود طاقة محدودة ، ولا شك أن محاولة كهذه أضعف من أن يكتب لها مجرد البقاء أمام التطور الاقتصادى الشامل الذى بدل حياة المجتمع كله وأوجد له دولة قوية تفرض عليها مصلحتها القومية الابقاء على نظام الانتاج الكبير ، بل العمل على ازدياد حجمه وضخامته لهذا لم يكن نظام أوين يصلح بديلا للنظام الرأسمالى القائم وقتئذ ، ولكن تجاربه كانت لها ناحية هامة من نواحيها ، وهى الايمان الذى كان يدفعه اليها والحماس الذى أظهره هو وأتباعه فى الدعوة اليها واغراء الرأى العام بها ، وقد تمخضت تلك التجارب عن ظهور صعوبات عملية ، وكانت فى أول الأمر تخضع للتبديل والتنقيح فى عدد الآراء المبعثرة غير المحكمة من ناحية العمل والتخطيط ولكن الأيام

جعلت من هذه التجارب والآراء مادة تبلورت منها الآراء التعاونية التى تتجاوب من الناحية العملية مع مطالب الاقتصاد الحديث والمجتمع الديمقراطى المنشود .

لقد خلف لنا أوين وأتباعه تراثا فكريا قيما من المبادىء والطرق والأساليب التعاونية لا يمكن انكار آثاره فى تطور الحركة حتى صارت الى ما صارت اليه فى الأحقاب التالية .

لقد كان أوين يهدف أول الأمر الى مساعدة العاطلين ، ثم اتسعت أفكاره وامتدت لتشمل الانسانية جمعاء ، واليوم نجد التعاون الحديث قد انتشر فى جميع بقاع الأرض على اختلاف صوره وأشكاله ، واذا كانت مستعمرات أوين النموذجية قد فشلت ، فان فكرة « الورشة التعاونية » أو « المصنع التعاونى الصغير » وفكرة « النقابة التعاونية » قد تولد منها الشعور بأن فى استطاعة العمال أن يكونوا أرباب أنفسهم بدل أن يشتغلوا أجراء عند غيرهم . وقد قام فريق من أتباع أوين بمحاولات لانشاء جمعيات استهلاكية ، كما اتخذت مكاتب العمل التى أنشأها وسيلة لتبادل سلع منتجة تعاونيا بأخرى أنتجتها وحدات مماثلة وبمعدل تبادل على أساس قياس ساعات العمل . وبمرور الأيام أثبتت التجارب العملية أن التعاون الاستهلاكى هو أكثر أنواع التعاون فرصة فى النجاح لأنه لا يحتاج الى تمويل ضخم ، ولأنه تقل فيه المخاطر ، ويسهل اقامة وحداته ولكن أوين على الرغم من أنه كان يؤمن بأهمية المتجر الاستهلاكى ، لم يكن يعترف به كنقطة ابتداء فى أية خطة من خططه ، وقد عبر عن هذا الاتجاه بهذه الجملة المأثورة المشهورة « المتجر لا يبنى مجتمعا ، ولكن فى امكانه أن يبنى متجرا »(١) .

---

(١) A Community Could build a store, No store could build a Community. جاك بيلى : المرجع السابق

المبحث الثانى

معاصرو أوين وأتباعه

لا شك أن الأفكار التى كان ينادى بها روبرت أوين ، والتجارب الاجتماعية التى كان يقوم بها كانت تحتاج الى دعاية واسعة النطاق بين أوساط العمال حتى ترسخ فى أذهانهم فكرة المعيشة التعاونية ، لأنها كانت الشرط الأول لنجاح تجاربه ، كما كانت تحتاج الى دعاية واسعة بين الطبقات والطوائف الاجتماعية الأخرى لكى تحظى بتأييدهم المادى والمعنوى ، ولكن يبدو مما كتبه مؤرخو حياة أوين أنه كان دائم التعصب لأفكاره الشخصية ، فكان يقحمها فى كل مناسبة وعلى الرغم من قدرته على الاقناع واخلاصه فى نواياه وحماسه فى خدمة الغير وعدم ايثار نفسه أو مصالحة بشىء مما يتصل بالاثرة والأنانية فانه فقد عطف رجال الكنيسة والسياسيين وغيرهم من الشخصيات البارزة ، وكان ذلك بصفة خاصة حينما تعمد عام ١٨١٧ مهاجمة جميع أنواع الأنظمة الدينية وحينما أعلن فيما بعد آراءه (الخارجة) الخاصة بالزواج ... ولم يكن ديمقراطيا (بالمفهوم السياسى) ولا مؤمنا بالحكم النيابى ، بل كان مبالغا فى التفاؤل ومفرط فى الايمان بصواب آرائه حتى لقد اعتقدنا أن جميع ذوى النفوذ والثراء سيتلهفون على تنفيذ خططه فورتوضيحها لهم(١) .

وقد كان من حسن حظ الحركة التعاونية فى بريطانيا أن ظهر بين المعاصرين لروبرت أوين رجال بذلوا جهودا مثمره فى سبيل نشر الفكر

---

(١) هول واتكنز : المرجع السابق صفحة ١٥ .

التعاونى وقاموا بتجارب لتشجيع النشاط الاقتصادى التعاونى لا كما صممه أوين فى « مستعمراته » بل كما كانت تقضى الظـروف المحيطة والحاجات المباشرة ، ومن بين هؤلاء اشتهر اثنان يجدر بنا أن نتحدث عنهما والطبيب الانجليزى وليم كنج ١٧٨٦ — ١٨٦٥ William Thompson ، والطبيب الانجليزى وليم كنج (١٨٨٦ — ١٨٦٥) William King ، فهذان لم يتقيدا بالتعصب للأفكار التى أشاد بها أوين ، وانما اكتفيا بالروح التعاونية فى آرائه ومشروعاته ، وأخذا ينشران الدعوة للاصلاح الاجتماعى التعاونى عن طريق المنظمات والجمعيات والنشرات والمحاضرات، فكان لجهودهم أثر عظيم استفادت منه الحركة التعاونية . فتحولت من مجرد تجربة أو أسلوب الى فلسفة اقتصادية اجتماعية ، وسنورد فيما يلى نبذة عن كل منهما نتوخى فيها تحليل أفكارهماوتقدير جهودهما ومدى اسهامهما فى الفكر التعاونى .

وليم تومسون (١٧٨٠ — ١٨٣٣) William Thompson

من المعاصرين لروبرت أوين « وليم تومسون » الذى ولد سنة[1] ١٧٨٠ وقد ورث مزرعة تسمى « كلونكين » Clonnkeen عندما بلغ الثلاثين من عمره وقد أوصى بها عند موته الى مديرى أعماله مشترطا أن يقيموا لكل مجتمعا تعاونيا ، وقد عرف عنــه سعة الاطلاع وكان من المتفهمين لكل النظريات الاقتصادية التى ظهرت فى عصره وقد أخذ عن أوين نظرته الاصلاحية فى اقامة مجتمعات اختيارية للعمال .

كتب سنة ١٨٢٤ « بحثا فى توزيع الثروة على خير المبــادىء التى تحقق لسعادة لبشرية » .

---

(١) يرجع الى « التعاون » هول وواتكنز — المرجع اسابق ص ٥٢ وما بعدها .

An Inquiry into the Principles of the Distribution of Wealth Most conduactive to Human Happiness.

كما نشر له سنة ١٨٢٧ كتابا آخر بعنوان « مكافأة عنصر العمل Labour Rewarded — أو كيف تضمن للعامل غلة جهده » .

وفى سنة ١٨٣٠ نشر « ارشادات عملية لسرعة تأسيس المستعمرات بطريقة اقتصادية » .

Practical Directions for the Speady and Economical Establishment of Communities.

العمل مصدر الثروة :

كان يرى أنه لن يوجد مجتمع أسعد من ذلك الذى توزع فيه الثروة بين أعضائه بالتساوى ، وأن مثل هذا المجتمع قد يكون فقيرا ولكن اذا أراد أن يرتفع بمستوى رفاهيته ، فان عليه أن يعمل حتى بلغ الانتاج أقصى ذروته ، وكان من رأيه أن العمل هو مصدر الثروة وهو فى ذلك ما هو الا عمل مدخر وأن أثمان السلع فى السوق تحدد بمقدار العمل يقول : «Labour is the Sole Parent of Wealth» وأن رأس المال الذى صرف فى انتاجها وانتهى الى أن العمال وحدهم هم العامل الوحيد فى الانتاج ولذلك يجب أن يعود عليهم كل ما يأتى به الانتاج من ثروة .

كان يقول ان ملاك الأراضى وأصحاب المصانع والآلات يتحكمون فى العمال بحكم امتلاكهم لهذه الأراضى والمصانع والآلات ، وهم لايقبلون أن يؤجروا للعمال مالا فى حوزتهم ليقوم هؤلاء العمال بعملية الانتاج لأنفسهم ولحسابهم ... بل يرغمون على قبول العمل بأجور لا تتعدى حد الكفاف ويستولون هم بغير وجه حق على كل فائض أو ربح فى الانتاج . وازاء هذا التحكم وهذه السيطرة من جانبهم فليس أمام العمال الا القبول أو الموت جوعا .

ان جذور الشر متأصلة فى النظام الاقتصادى — وان أسس النظام الاقتصادى الجديد الذى يطالب به : هو أن تتعاون جماعات العمال لمعاونة بعضها بعضا ، فاذا استطاعوا ذلك حققوا لأنفسهم كل ما ينتج من جهودهم • كتب فى مجلة التعاون Cooperative Manazine فى نوفمبر سنة ١٨٢٦ مخاطبا العمال بما يلى :

هل تريدون أن تمتلكوا بفضل جهودكم وفى سنين قليلة الأرض التى يخرج منها الغذاء ، والمواد الأولية ، والمساكن التى تعيشون فيها ، وجميع الآلات والمواد الخام اللازمة للانتاج ؟ وهل تريدون التمتع بكل ما ينتج من عملكم ، اذا أردتم ذلك فليس عليكم الا أن تتجهوا بجهودكم نحو العمل لبعضكم ، وبدلا من أن يعمل الجميع فى صناعة الحرير أو الاحذية أو القطن مثلا ، دعوا جانبا منكم يزرع ، وجانبا يصلح الأثاث والآلات والمساكن • وآخر يقوم بصنع الثياب القطنية والصوفية والأحذية ••• وغيرها ، واتركوا بعضا منكم يستمر فى صناعة الحرير أو غيره من السلع، وبذلك تمدون بعضكم بعضا بالسلع التى تحتاجون اليهـا وتصبحون المنتجين والمستهلكين وسادة أنفسكم •

كان وليم تومسون يرى أنه يجب على العمال أن ينتظموا فى مجتمعات تعاونية تدار بواسطة أعضاء منتخبين من بينهم ، وبذلك لا يكون هناك من يستولى على الربح • واذا استطاعوا أخيرا أن يمتلكوا الأرض ورأس المال الذى هم فى حاجة اليه ، فلن يكون هناك — حينئذ — من يقاسمهم فى ناتج جهودهم عن طـريق الايجار أو الفائدة ، كما وينتـج عن ذلك استبعاد البطالة والأنواع الأخرى للضياع الاقتصادى وذلك عن طريق الموازنة بين العرض والطلب ، والتقريب بين المنتخبين والمستهلكين • كان يرى أن هذه المجتمعات التعاونية بين العمال لا تستدعى وجود أموال ضخمة كما كان يقول روبرت أوين • فبينما كان روبرت أوين يتطلب

على الأقل ربع مليون جنيه انجليزى ، كان وليم تومسون يكتفى بخمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه انجليزى • الا أن تومسون فى جميع أبحاثه لم يرشد العمال على الوسيلة التى يستطيعون بها تجميع مثل هذا المبلغ ، وكان يرى أن تفكير العمال فى احدى الثورات لا يعود عليهم الا بالضرر • وأن الواجب على العمال المتعاونين أن يطالبوا الحكومة بحماية المنشآت التعاونية • وقد توفى فى عام ١٨٣٣ •

تقدير فلسفة وليم تومسون وآثارها :

كان وليم تومسون يتميز بين معاصر به بسعة اطلاعه ودراسته العميقة للكتاب والنظريات والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وقد يكون من أسباب ذلك أنه عاش مدة فى منزل الفيلسوف الاقتصادى بنثام(١) Jeremy Bentham ودرس عليه ، وما من شك فى أنه درس الآراء الاقتصادية المعاصرة واختلط بأصحابها مثل ريكاردو ، وجون ستيوارت ميل ووالده جيمس ميل ولكن يبدو أن التأثير الأكبر فى أفكاره جاءه من وليم جودوين الفوضوى وروبرت أوين الشيوعى »(٢) وقد استقى تومسون مبادئه عن أهداف التنظيم الاجتماعى من بنثام ، وهى تقوم على فكرة أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد • كما تشعبت آراؤه عن الحكومات بأفكار جودين(٣) الذى يعتبر « الحكومة قوة منظمة من

(١) Jeremy Bentham من ألمع الفلاسفة الانجليز فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر وهو رائد المدرسة النفعية (Utititarianism) التى كانت الأساس الفلسفى لكثير من النظريات الاقتصادية فى عصره وبخاصة نظريته فى المنفعة المتناقصة .

(٢) هول — واتكنز ، المرجع السابق صفحة ٥٢ • ويبدو أن المؤلفين يستعملان لفظ « الشيوعى »تجاوزا لا كما أصبحت الشيوعية تعرف اليوم.

(٣) وليم جودوين (William Godwin) من معاصرى تومسون — بدأ حياته قسيسا ثم سرعان ما انقلب فوضويا على الدين ومبادئه — وشجعته الثورة الفرنسية على الكتابة فى الفلسفة السياسية فلمع ككاتب ناجح رغم المحاولات التى بذلت لايقاف كتاباته الفوضوية .

فريق الأغنياء لنهب الفقراء » واعتمد فى اقتراحاته للاصلاح الاجتماعى على فكرة أوين فى انشاء وحدات جماعية من العمال ، ثم أضاف الى كل هذا ايمانه بنظرية « العمل أساس القيمة » التى جعل منهـا « المعامل » فى أغلب دعاياته وكتاباته .

ومن ذلك يتضح أن تومسون لم يكن مجددا فى آرائه ، وانمـا كانت هذه الآراء مزيجا من عدة فلسفات . وحتى نظـرية العمل أساس القيمة التى كان لها بريق وجاذبية على لسان تومسون لم تكن بالمستحدثة، فقد سبقه فى نشرها أمثال توماس أكوينا (Thomas Aquina) (١) فى القرن الثالث عشر وجون لوك (John Locke) (٢) فى القرن السابع عشر. ولكن الذى يثير اهتمام الباحث فى تاريخ التعاون هو أن وليم تومسون استخدم تلك الفلسفات والنظريات التى اقتبسها من غيره فى اثارة حماس الطبقات العاملة ، وافهامها أن لها كيانا اجتماعيا وحقوقا سياسيا وأهمية اقتصادية ، كما أفهم العمال عن طريق الدعاية المستمرة بالخطابة والنشر أن التعاون خير ضمان لحصولهم على ثمرة عملهم وجهدهم ، وأنه يحول دون أن ينهب منهم أصحاب الأعمال هذه الثمرات ، أما السبيل الى ذلك فهو أن يسعى العمال تدريجيا عن طريق العمل فى وحدات جماعية تعاونية الى الوصول للاكتفاء الذاتى فى جميع أنواع الانتـاج ، وبذلك تنتفى حاجتهم الى الرأسماليين أو الملاك الزراعيين .

وجدير بالذكر أن تومسون — على الرغم من أنه كان يعتقد صواب نظريته « العمل أساس القيمة » وعلى الرغم من أنه تأثر بفلسفة جودين ،

---

(٢) فيلسوف انجليزى عاش فيما بين عامى ١٦٣٢ — ١٢٧٤ .
(٢) فيلسوف انجليزى عاش فيما عام ١٧٠٤ .

لم يكن من دعاة تغيير النظام الاقتصادى عن طريق العنف بل كان ينادى دائما بأن التعاون ينبغى ألا يهدم القيم الاقتصادية القديمة الا اذا خلق بدلها قيما جديدة ، وأن السبيل الى حرمان الملاك من نفوذهم وملكياتهم هو بناء مجتمع جديد مستقل عن تلك الملكيات(١) كما كان يرى ضرورة التجاء التعاونيين الى الحكومة لحماية حركتهم البناءة(٢) • ثم أراد تومسون أن يكون عمليا أكثر من أوين فى تقديره لرأس المال اللازم لاقامة « مستعمرة » تعاونية ، ذلك أنه بينما كان أوين يقدر المال اللازم بربع مليون جنيه ، كان تومسون يرى أن ٦٠٠٠ جنيه تكفى لانشاء المستعمرة(٣) ، وأن من الأفضل الحصول على هذا المبلغ من الفائض لدى الجمعيات التعاونية بدل استجداء المحسنين وفاعلى الخير • ولكن هذا المبلغ على الرغم من ضآلته الظاهرية كان أكبر من أن يتخيل العمال أنهم يستطيعون تدبيره من دخولهم الضئيلة بل ان جميع الآراء الرنانة التى نشرها بينهم تومسون كانت من القصور بحيث لم يتبين العمال منها الطريق العملى لتدبير المال اللازم ، فوجدوا أن عليهم أنفسهم أن يكتشفوا الخطوة الأولى للتكوين الرأسمالى اللازم ، ثم كان للدكتور وليم كنج الفضل فى نشر هذا الاكتشاف بين التعاونيين فى عصره •

---

(١) من خير التراجم لحياة وليم تومسون :
R.J. Pankhurst : William Thompson, 1775-1833. (Watts. Co London 1938).

(٢) هول — واتكنز ، المرجع السابق صفحة ٥٦ . ونلاحظ أن هذا من ضمن المبادىء التى عارضتها الحركة التعاونية فيما بعد .

(٣) جاء فى محاضر المؤتمر التعاونى الثالث فى لندن (١٨٣٣) : « واوضح تومسون لماذا لم تتخذ خطوات لانشاء المستعمرة حتى الآن . . ان المستر اوين لم يوافق أن يقترن اسمه بأية لجنة تفكر فى بدء المشروع بمبلغ يقل عن ٢٤٠ الف جنيه . . . قال مستر أوين انه رغم تقديره الكبير لمستر تومسون ، يرجو أن يؤكد له أن مبلغ ستة الآلاف ولا عشرين الف ولا حتى سبعين الف الف جنيه لن تكون ذات جدوى . . . » .

دكتور وليم كنج (١٧٨٦ — ١٨٦٥)

كان وليم كنج يعيش فى عصر أوين ، وكانت تراوده نفس أحلامه وأمانيه .

ولد عام ١٧٨٦ وجمع الدكتور كنج فى شخصيته بين خصائص الرجل العملى من حيث كان طبيبا ناجحا ، وبين النزعة الى الخير والرغبة فى مساعدة الفقراء من حيث تولدت فيه هذه النزعة عن طريق كثرة اتصاله بهم بحكم مهنته ، ولعل أهم ما ساهم به كنج فى ميدان الدعوة والدعاية للتعاون وهو نشر مجلة صغيرة باسم « التعاونى » The Cooperator فقد اكتسبت هذه المجلة فيما بعد شهرة واسعة بسبب ما كانت تحتوى عليه أعدادها من الارشادات العملية الكثيرة ، ومن أنباء انتشار ونجاح التجارب التعاونية فى شتى أنحاء البلاد . ولم يكن كنج يلجأ الى استخدام الألفاظ الرنانة والفلسفات المجردة والنظريات الذهنية التى يعوزها التطبيق، كان يستعمل الأسلوب المبسط المعقول الذى يسهل فهمه على الطبقة العاملة، وبذلك خدم الهدف الذى كان يرمى اليه بنشر هذه الدعاية وهو تثقيف الطبقة العاملة وتلقينها مبادىء التعاون واقناعها بفائدته . وكان المبدأ الذى سار عليه كنج فى كل كتاباته ، وبدأ به أول عدد من مجلة «التعاونى» هو : « المعرفة والاتحاد هما قوة ، والقوة الموجهة بالمعرفة تؤدى الى السعادة ، والسعادة هى هدف بنى الانسان »(١) ؛ وقد ظل هذا المبدأ شعار المجلة مدة انتشارها .

عرف التعاون وتكلم عنه قائلا « التعاون لغـويا معناه العمل(٢)

---

(١) «Knowledge and union are power, Power directed by knowledge is happiness is the end of all creation».

(٢) هذ المقتطفات من كتاب T.W. Mercer : Cooperation's Prophet (Cooperative Union Ltd., 1947).

سويا — والاتحاد قوة فى جميع الحالات وبدون استثناء — فما لا يستطيع أن يفعله رجل قد يستطيعه اثنان ، وما هو عسير على القلة يكون يسيرا على الكثرة ، ولكن قبل أن تبدأ الكثرة عملها يجب أن تتحد يدا بيد ويربطها شعور مشترك .

« اننا نحصل الآن على جزء صغير » وذلك لأننا نعمل من أجل الآخرين ، فاذا كنا بأية وسيلة نستطيع أن نعمل لأنفسنا فاننا نحصل على كل شيء ، وطالما أن رأس المال ليس لدينا فنحن مرغمون على أن نبحث عن سيد يعطينا وظيفة ، ومجبرون على العمل للحصول على أجر .

« انه رأس المال الذى نحن فى حاجة اليه ، وبالاتحاد والادخار نستطيع أن نجمعه . يجب أن ننظم أنفسنا فى جمعية لهذا الهدف الخاص ، ورأس المال المتجمع يمكن استخدامه فى خير وسيلة قد تراها الجمعية » .

ثم استطرد مبينا آراءه فى مشروعات أوين « التعاون يعتبر موضوعا جديدا ، بالنسبة للطبقات العاملة فمن الطبيعى أن لا يعرفوا عنه شيئا ، واذا كانوا قد سمعوا عنه فانهم علموا أن تحقيقه يتطلب مبالغ طائلة وأن أقل مبلغ يلزم لتحقيقه هو ٢٠٫٠٠٠ ج.ك يرتفع الى أن يصل الى مليون ج.ك. ان شروطا كهذه لم تكن لتقرب الناس الى التعاون وتحببهم فيه وتشجعهم على الاهتمام بأمره بل كانت تأتى بنتائج عكسية » .

وقد بين كنج الجانب العملى لفكرته فى التعاون عندما شرح كيفية تكوين جمعيات تعاونية صغيرة أولا ، تباع فيها المنتجات البسيطة التى تنتجها جمعيات الانتاج التعاونى ، وتكون فى نفس الوقت وسيلة لجمع عدد من الأعضاء ثم تصبح بعد ذلك مصدرا للحصول على الأموال اللازمة لانشاء « المستعمرات » النموذجية ... وكان يخاطب العمال عندما قال

فى مجلته بأسلوبه المبسط الواضح(١) : « العمال المتحـــدون يجب أن يكونوا مستقلين ، فلا بد أن يدخروا ويدخروا لتكوين رأس مال جماعى، ليكن رأس مالهم هذا سيدهم ! ! لن يخطئهم ، أو يرهقهم ، أو يلقى بهم فى الخارج ••• » وهكذا كان كنج يؤكد على العمال مرارا أن تجميع المدخرات الصغيرة هو السبيل لتكوين رأس المـال اللازم • وفى ذلك يقول : « ان الانسان لا يحتاج لأكثر من أجره وزميل أمين ليبدأ عمله ، واذا وفق هذان الى أن ينضم اليهما ثالث حق لهما أن يطمئنا الى قوة الرابطة التى تربط ثلاثتهم ، لأنه يصعب فصم عرى مثل هذه العلاقة ، وعندئذ يجوز لهم الاكتتاب أسبوعيا لتكوين رأس مال مشترك بينهـم ليتجروا فيه سويا بشراء البضائع اللازمة لعملهم ، ويقتصدون بهـذه الطريقة قليلا من المـال يضيفونه الى ما لهم المشترك الذى جمعوه فى بادىء أمرهم •

«واذا انتهج عدد آخر من العمال نهجهم ، كان هناك احتمال فى أن يقدموا على عمل أكثر أهمية ، فقد يمتلكون مخزنا خاصا بهم يتعاملون فيه بكل ما يحتاجون اليـه ، ويتنافسون مع المحلات الأخرى فى خدمة الجمهور ، فاذا زادت معاملاتهم زادت أرباحهم وزاد بالتالى رأس المال ، وحينئذ يمكن توظيفه فيما هو أكثر نفعا للجمعية ، فاذا كان هناك طلب مريح على سلعة معينة فان الجمعية قد تتجه نحو انتاجها ، واذا كانت الأرباح الناتجة من السلعة لا تتناسب مع الجهد المبذول فى صنعها ، فان الأعضاء قد يلجأون الى زراعة الأطعمة التى يحتاجون اليها عن طـريق

(١) نشر فى كتاب « نبى التعاون » السابق بالاشارة اليه
Cooperator : No 8
Dec., 1, 1828.

شراء أو استئجار الأرض ، وبذلك يصبح بعضا منهم رزع بدلا من صناع »(١) .

وكتب فى العدد الثامن من مجلته الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٢٨ مقالا بعنوان : «الأسس الثلاث للتعاون» : العمل — رأس المال — العلم The three essentials of Cooperation : Vir, Labour — Cap'tal, Knowledge. وقد أوضح فيه أنه اذا أرادت الجمعيات التعاونية استقلال أعضائها ، فيجب عليها أن تثبت أنها تحتوى على الأساس الذى يبنى عليه كل استقلال فى العالم ، ذلك الأساس هو العمل ، فالعمل هو كل شىء ، هو بمثابة القلب من الجسد — والحجر الأساسى للبناء — هو ينبوع الحياة — والعمال وحدهم القابضون على زمامه فيجب أن يستفيدوا به لمصلحتهم دون الآخرين ، ثم استطرد شارحا لهم كيف أن رأس المال الذى هم فى حاجة اليه نتيجة عمل مدخر Produce of labour saved up فعليهم أن يدخروا جانبا من ناتج عملهم اذا أرادوا أن يملكوا رأس المال ليصبحوا سادة أنفسهم ، فرأس المال يجب أن يقترن بالعمل ليكون منتجا . ورب معترض يقول لا يمكن أن يصبح الناس جميعا سادة — وهذا حق — أن السيادة التى نعنيها هى أن يعمل الشخص برأسماله ولمصلحته . ثم حثهم على التضامن وعدم تفرد كل منهم فى عمله لأن كل أمة سادها الانقسام سهل تسرب الفساد اليها ، وكان مآلها الفوضى والضياع ، وهو يذكرهم دائما بأن أكبر عائق يحول دون تحقيق التعاون هو انتشار الجهل بينهم ثم يعطيهم الثقة فى أنفسهم قائلا « لا نزاع فى أن عقول العمال ليست بأقل قدرة من عقول غيرهم من الناس على استيعاب العلوم بدليل

(١) أوردنا هذه المقتطفات دون اختصار لاعتقادنا فى أهميتها التوجيهية .

أن أكثر عظماء الرجال نهضوا من بين طبقات العمال ولا ينقصهم للحصول على العلم الا الوقت والراحة » .

وفى آخر عدد من مجلته الصادرة فى أول أغسطس سنة ١٨٣٠ تكلم عن التعليم والادارة Education and Management وخاطب أنصار التعاون قائلا : « كما أنه لا يمكن لأنصار التعاون الحصول على أهدافهم بدون تعليم ، وكذلك لا يتسنى لهم تحقيق أمانيهم من غير حسن الادارة ، ونصحهم بأن النجاح فى التجارة يتوقف على حسن الادارة فى عمليات الشراء — كما وكيفا — فمن جهة هناك مزايا تنجم عن الشراء بكميات كبيرة ، ومن جهة أخرى هناك خسائر تنتج من ركود البضاعة . ان سر النجاح فى التجارة قائم على سرعة تصريف البضاعة فرأس المال الصغير الدائم كثيرا ما يحقق أرباحا أكثر مما يحققه رأس المال الكبير الجامد ، كما طالب فى هذه المقالة بالبيع بالنقد ودقة امساك الدفاتر »(١) .

أهداف وطرق الجمعيات فى رأى كنج :

يتضح مما تقدم أن كنج على خلاف « أوين » لم يعتمد على مساعدة الأغنياء فى تحقيق أهدافه . بل اعتمد على جهود العمال ، وأوضح لهم أن فى استطاعتهم تحقيق الأهداف المرجوة اذا اتحدوا ونظموا صفوفهم ، وتمكنوا من محو الجهالة المتفشية بينهم ، وفيما يلى نورد ملخصا للأهداف والطرق التى ينبغى أن تسير عليها الجمعيات التعاونية فى رأى كنج كما أوردها فى العدد السادس من مجلته .

---

(١) نوجه النظر مرة ثانية أوردنا هذه المقتطفات دون اختصار لاعتقادنا فى أهميتها التوجيهية .

(ا) الأهـداف :

١ — أن يعمل الأعضاء على حماية أنفسم ضد الفقر .

٢ — أن يحصلوا على جانب أكبر من الراحة فى معيشتهم .

٣ — أن يتحرروا من سيطرة رأس المال عن طريق جمع رأس مال مشترك بينهم .

(ب) وسيلة تحقيق الأهداف :

١ — جمع رأس مال مشترك عن طريق أن يدفع الأعضاء ستة بنسات كل أسبوع .

٢ — استعمال هـذه الأموال فى أوجه مخالفة لما اعتادوا عليها فيما مضى ، وذلك عن طريق استخدامها فى التجارة بدلا من استثمارها فى صناديق التوفير .

٣ — اذا تجمع رأس مال كاف يستخدم فى الانتاج لمصلحة الجمعية.

٤ — اذا تجمع رأس مال أكثر من ذلك يستخدم فى شراء أرض ليعيش الجميع عليها .

٥ — اذا أخذ رأس المـال فى التزايد فان هذا يؤدى بالتدريج الى توظيف جميع الأعضاء والانتفاع بجهودهم بأحسن الطرق المنتجة .

(حـ) صفات الأعضاء :

يرى الدكتور وليم كنج أنه يجب اختيار الأعضاء بعناية تامة ، ويجب أن تتوافر فيهم الصفات الآتية :

١ — أن يكون الأعضـاء جميعهم من طبقة العمال ، وسبب ذلك فى رأيه :

(أ) أن العمل وحده هو مصدر الثروة .

(ب) أنه لا قيمة لرأس المال ما لم يتحول بجهود العمل ما يؤدى الى راحة الحياة ورفاهيتها .

ومن رأيه أنه لم يكن من السهولة بمكان فى ظل النظام الاجتماعى القائم وقتئذ اندماج مختلف الطبقات لأن الحسد كان يقف حائلا دون ذلك ، هذا فضلا عن أن الطبقات الراقية لم تكن تحتمل مناقشة من دونها أو الاعتراف بالمساواة معها .

٢ — أن يكون العمال مهرة قادرين على اكتساب مبالغ معينة أسبوعيا تتفق عليها قوانين الجمعية وأن ينتخبوا من بين أكثر المهن فائدة، ويجب أن لا يكون عدد من يختار من الحرفة الواحدة كبيرا .

٣ — يجب أن يتحلوا بالأخلاق الحسنة ، وأن يكونوا من المجدين الهادئين الذين يواظبون على العمل ويهتمون به .

٤ — أن يكونوا غير جهلاء ، على قدر من العلم يتناسب مع وسطهم الاجتماعى ، ميالين لتثقيف عقولهم وزيادة معارفهم كلما سمحت ظروفهم بذلك .

٥ — أن يكونوا أصحاء يحترمون قوانين الجمعية ولا يخالفونها .

٦ — يجب أن يكونوا فى سن معينة ، قد يكون هذا السن بين الثانية عشر والخامسة والثلاثين ، وذلك لأنهم اذا كانوا مسنين فان قواهم تكون قد وهنت ويصعب على الجمعية حينئذ الاستفادة منهم .

٧ — يجب أخذ موافقة الزوجة على انضمام زوجها للجمعية ، وأن تفهم شيئا عن مبادئها والا فان زوجها لن يكون مع العمل بقلبه وفى مثل هذه الحالة قد يكون سببا فى تعكير الصفو والانسجام داخل الجمعية .

٨ — يجب أن لا يسمح بانضمام العائلات الكبيرة وذلك لأنه فى بدء حياة الجمعية قد يتسبب وجود أعضاء غير منتخبين فى أضرار جسيمة للجمعية .

٩ — وللاحتفاظ برأس المال سليما ، طالب كنج الأعضاء بأن يمدوا يد العون عن طريق الاكتتاب فيما بينهم لمن يقعده المرض عن العمل ، أو يموت ، أو تموت زوجته . واذا فقد أحد الأعضاء وظيفته دون خطأ منه فيجب مده بالمعونة حتى يتمكن من ايجاد عمل له اما داخل الجمعية أو خارجها .

١٠ — اذا لم يكن هناك مكان فى الجمعية لاجتماعات الأعضاء ، فيستأجروا مكانا يدفع ايجاره عن طريق اشتراك ربع سنوى .

١١ — يجب أن يجتمع الأعضاء مرة كل أسبوع لتبادل المعلومات وزيادة مداركهم عن مبادىء الجمعية وأن يعين فى كل اجتماع موضوع البحث الذى سيناقش فيه الأعضاء فى الاجتماع المقبل ، ويصح أن تقرأ كتب فى الموضوع ثم يؤخذ بعين الاعتبار مناقشات الأعضاء . ويتولى أحد الأعضاء رئاسة الجلسة ثم يتناوب الأعضاء الرئاسة بعد ذلك .

١٢ — على الأعضاء الذين يتسع لهم الوقت أن يجتمعوا أثناء الأسبوع فى المساء لتنظيم أنفسهم فى فصول لتثقيف بعضهم . وبما أن الجمعيات ستعتبر العمل مصدر كل ثروة يطلق عليها اتحادات العمل Working Unions فيجب أن يوجهها العلم والمعرفة ، ويجب أن تتزود بالعلم النافع على قدر المستطاع .

١٣ — وتطبيقا لهذا المبدأ فسيبدأون بتوجيه اهتمامهم الخاص نحو تثقيف أطفالهم وسيرسلون بهم الى خير ما فى المناطق المجاورة من مدارس بشرط أن يسمح لهم بزيارة هذه المدارس ومشاهدة مدى تقدم أطفالهم.

وهناك خطة أفضل وهى أن يؤسسوا مدرسة خاصة بهم ، ويستأجرون من يقومون بمهمة التثقيف .

١٤ — يجب أن تجمع هذه المدرسة بين التثقيف والصناعة حتى لا يتسرب الى نفوس الأطفال الكبر والكسل . ويتشربون المعرفة فى العمل .

ويرى كنج أنه اذا سار العمال على هذا المنوال فانهم سيتفوقون عى غيرهم ويتمكنون من ضمان وجود عمل دائم لهم ، وحينئذ يسهل عليهم بث روح جديدة بينهم ألا وهى العمل على تحسين النواحى العقلية والخلقية فيهم .

حوانيت الاتحاد :

وقد أسس كنج جمعية بمدينة ايتون (سنة ١٨٢٨) ثم أسست على غرارها جمعيات كثيرة فى شتى أنحاء انجلترا أطلق عليها حوانيت الاتحاد Union Shops وكان مآلها جميعا الفشل ، لعدم اعتراف القانون الانجليزى بها ، والى اضطرار الأعضاء للانسحاب منها لعدم توزيع الأرباح ، فقد كانوا يؤثرون توزيعها عليهم بدلا من تركها لتكون رأس مال مشترك لمنفعتهم جميعا . وكثيرا من الكتاب يعتبرون كنج أحق الأشخاص بأن يلقب بأبى الحركة التعاونية فى بريطانيا ، ان كان هناك أحد يستحق أن يلقب بهذا اللقب .

غير أننا نعتقد أن كنج كان ضيق الأفق عندما حدد صفات الأعضاء بقوله « ان جميع الأعضاء يجب أن يكونوا من العمال ، بل وأن يكونوا من العمال المهرة الكاسبين » .

ففى رأينا أن مثل هذا التوجيه كان عائقا دون انتشار الفكر

التعـاونى ، بل كان من المحتمل أن يؤدى الى ايجاد روح انفصاليـة أو تفرقية بين أفراد المجتمع .

وقد أورد كنج عددا من المبادىء التوجيهية كانت بمثابة دعامات ثقافية للطبقة العاملة ولرواد التعاون ، وعلى الرغم من أنه لم ينص على ضرورة اتباعها بحذافيرها فى الحركة التعاونية كاشتراطات للعضـو ، الا أنها ظلت ضمن البرنامج الثقافى والارشادى لكل جمعية تعاونية مخلصة للمبدأ وللحركة .

---

(١) لمعرفة لمـاذا نصت المبادىء التعاونية التى انتشرت فيما بعـد على فتح باب العضوية للجميع ، نرجو الرجوع الى مؤلفنا « أصول التنظيم والادارة » الناشر مكتبة عين شمس ١٩٧٠ — الفصل الخاص بمبـادىء التعاون .

المبحث الخامس

تجربة روتشديل وما بعدها

تجربة روتشديل :

تقع مدينة روتشديل فى شمال انجلترا . وكان يقطن هذه المدينة فى عام ١٨٤٤ (١) مايقرب من ٢٥٠٠٠ نسمة ، وكانت تعتبر مركز للقوى المجاورة لها ، والتى كان يبلغ سكانها حوالى ٤٠٠٠ نسمة ، وقد ظلت هذه المدينة لسنوات عديدة مشهورة بصناعة الغزل والنسج للصوف والقطن وكانت توجد بجوار ذلك صناعات أخرى كصناعة السجاد وغير ذلك من الصناعات التى تخدم صناعة الغزل والنسيج بصفة رئيسية .

وتعتبر صناعة القطن فى مدينة روتشديل حديثة نسبيا اذ أنها بدأت فى عام ١٧٩٠ ، بينما أن صناعة وتجارة الصوف كانت تعرف منذ القرن الرابع عشر ، وظل الغزل اليدوى الحرفة الرئيسية للسكان لقرون عديدة.

وتعتبر مدينة روتشديل من المدن التى لحقت بها المساوىء السوداء التى نجمت عن التنظيم فى أوائل الثورة الصناعية من انخفاض فى الأجور وبطالة مزمنة ، واضرابات ، واستدانة ، وسوء تغذية ، وانحطاط فى المستوى الصحى ، ونحن نورد فيما يلى وصفا لما كان يعانيه عمال هذه

---

(1) A Century of Co-operation By G.D.H. Coll Published by George Allen & Unwin Ltd., of The Co-operative Union Ltd., 1944, p. 39.

المدينة كما أورده « جورج[١] جيكوب هولى أرك » فى كتابه « تاريخ رواد روتشديل » وذلك على لسان شيرمان كرافورد Sharman Grawford أحد المسئولين وذلك فى خطاب له فى مجلس العموم البريطانى ، فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٤١ ، قال « ان هناك ١٣٦ شخصا يعيش كل فرد منهم على ٦ بنس فى الأسبوع[٢] ، ٢٠٠ شخصا يعيش كل فرد منهم على ١٠ بنس فى الأسبوع ، ٥٠٨ شخصا يعيش كل فرد منهم على شلن و ٦ بنس فى الأسبوع ، ١٥٠٠ يعيش كل فرد منهم على شلن و ١٠ بنس فى الأسبوع » • ثم استطرد ذاكرا « ان خمسة أسداس هؤلاء جميعا يصعب علينا أن نقول ان لديهم ما يلتحفون به • ، فهناك ٨٥ عائلة ليس لديها أية أغطية على الاطلاق ، كما وأن ٤٦ عائلة تنام على أسرة من القش بدون أغطية » •

ويتبين لنا من الوصف السابق ، أن عمال مدينة روتشديل كانوا ينسجون الصوف ، ولكنهم لم يجدوا ما يلتحفون به فى جو هذه البلاد القارسة البرد ، ولعل هذا يبين لنا الى أى مدى استغلت الرأسمالية الصناعية العمال وقتئذ دون ما شفقة أو رحمة ، كما ويوضح لنا الدوافع التى حفزت العمال على أن يفكروا فى اقامة مشروعات لتحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية • فقد حاول عمال النسيج اليدوى بمدينة روتشديل اقامة جمعية تعاونية لهم عام ١٨٣٠[٣] ولكنها سرعان ما فشلت كما فشلت غيرها من الجمعيات الأولى •

---

(١) G. J. Holyoake History of the Rochdale Pioneers (chapter XII)
ينظر أيضا كول — المرجع السابق ص ٤١ • وينظر أيضا هول — ووتكنز ص ٨٣ •

(٢) أى ما يقرب من خمسة وعشرين مليما فى الأسبوع •

(٣) كانت تسمى « الهيئة الاشتراكية » Socialist Institution

ثم قامت محاولة ثانية عام ١٨٤٣ عند ما اشتدت وطأة الظروف السيئة على عائلات الطبقات العاملة فى المدينة ، فتألفت جماعة رواد روتشديل The Rochdale Society of Equitable Pioneers لاعادة تنظيم الجمعية التعاونية ، وكانت الأفكار الأولى لهؤلاء الرواد تعبر عن روح روبرت أوين حيث كانت ميالة الى الاشتراكية ، مبالغة فى التفاؤل . وآية ذلك أنهم جعلوا ضمن أهدافهم ما نترجمه بما يلى :

« حالما تسنح الفرصة العملية بذلك ، ستقوم هذه الجمعية بتنظيم قوى الانتاج والتوزيع والتعليم ونظام الحكم ، او بمعنى آخر ستقيم «مستعمرة» ذات اكتفاء ذاتى تضم ذوى المصالح المشتركة وتساعد الجمعيات على اقامة مستعمرات مماثلة(٢) .

وبعد أن وضعوا القواعد التى تحدد أهدافهم وتنظم خطواتهم ، بدأوا فى البحث عن مكان يتخذونه مقرا لنشاطهم فقوبلوا بكثير من العقبات ، أولها أن أصحاب الأملاك كانوا يعرضون عن تأجير أى مكان لرواد روتشديل ، اذ كانوا يشكون فى مبادئهم وفى مقدرتهم المالية . وبعد مداومة على البحث نجحوا فى استئجار طابق أرضى من مخزن قديم يقع فى تودلين Toad Lane قريبا من شارع يوركشير ، وزودوه ببعض الأثاث المتواضع غير المريح،ولكنهم بذلوا أقصى امكانياتهم للعمل والنجاح فى حدود الامكانيات المتاحة لهم .

---

(١) W.A. Brown, Rochdale Pioneers , (Coop. Union London) pp. 10-22

وفى ٢١ ديسمبر ١٨٤٤(١) افتتحت الجمعية أبواب متجرها وسارت فى الطريق العملى ، على الرغم من أن بضاعتها كانت ضئيلة ، ورأسمالها كان ثمانية وعشرين جنيها ، جمعت من البنسات التى ساهم بها الأعضاء الثمانية والعشرين وكانت مبيعاتهم فى بداية الأمر قليلة ، اذ كانت تتراوح ما بين أربعة جنيهات وسبعة جنيهات أسبوعيا . وبعد سنة من الجد والعمل والدعاية زاد عدد الأعضاء حتى بلغ ٧٤ جنيه ، كما بلغت جملة المبيعات ٧١٠ جنيه ، ورأس المال ١٨١ جنيه والفائض ٢٣ جنيه .

وليس هنا مقام الافاضة فى تاريخ جهود هذه الجمعية . فهو معروف تشيد به جميع كتب التعاون ، ولكن الذى يهمنا من أمر هذه التجربة العملية أنها نجحت بفضل تمشيها مع الواقع الملموس ، وسلوكها الطريق العملى وتجنبها أخطاء الجمعيات التى سبقتها(٢) .

ونحن اذا ألقينا نظرة سريعة على تطور جمعية روتشديل ، لوجدنا أن الفترة بين عام ١٨٤٤ وعام ١٨٤٨ قد شهدت تقدما بطيئا ، فقد زادت العضوية فى عام ١٨٤٦ بمقدار ستة أعضاء فقط ، أما فى عامى ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ فقد ازداد عدد الأعضاء ٣٠ عضوا سنويا ، وبلغت قيمة المعاملات فى عام ١٨٤٨ مبلغا وقدره ٢٢٧٦ جنيه ، ورأس المال ٣٩٧ جنيه ، والفائض ١١٨ جنيه .

---

(١) يذكر « كول » أن التاريخ الرسمى لتكوين جمعية روتشديل كان فى ١٥ اغسطس سنة ١٨٤٣ ، وكان ذلك فى اجتماع عقد بالمعهد الاشتراكى فى ١٥ اغسطس ، وقد تقرر فى هذا الاجتماع أن الجمعية أسست فى هذا التاريخ كما يذكر أن أسماء الأشخاص التى حضرت الاجتماع هم : Miles Ashworth, James Bamford, James Daly, James Holt, John Holt. Charles Howarth, James Smithies, William Taylor, and James Tweedale.

(٢) هول — واتكنز ، المرجع السابق ص ٨٣ وما بعدها .

ونقطة التحول فى تاريخ جمعية روتشديل تبدأ فى عام ١٨٤٩ (انظر جدول رقم ١) ، اذا ارتفعت العضوية فى هذا العام الى ٣٩٠ عضوا ، بينما كانت فى عام ١٨٤٨ يبلغ عددها ١٤٠ عضوا ، كذلك ارتفعت قيمة المعاملات من ٢٢٧٦ جنيه عام ١٨٤٨ الى ٦٦١٢ جنيه عام ١٨٤٩ ، ورأس المال من ٣٩٧ جنيه الى ١١٩٤ جنيه ، والفائض من ١١٨ جنيه الى ٥٦١ جنيه ، ويلاحظ أن عام ١٨٤٩ هذا قد شهد فشل بنك المدخرات فى مدينة روتشديل ، وقد جلب هذا الفشل التعاسة لكثير من السكان ، غير أنه كان هبة الهية God send لجمعية روتشديل التعاونية ، اذ ازدادت نسبة العمال التى وثقت فى الجمعية وانضمت اليها ، فنحن نلاحظ أن العضوية ارتفعت فى عام ١٨٥٠ الى ٦٠٠ عضوا والمبيعات الى ١٣١٨٠ج وفى عام ١٨٥٥ كان ينضم الى الجمعية ١٤٠٠ ضوا ، والمبيعات حوالى ٤٥٠٠٠ ج وفى عام ١٨٦٠ ارتفع رقم العضوية الى ٣٤٥٠ عضوا ، والمبيعات الى أكثر من ١٥٢٫٠٠٠ جنيه وفى نفس الوقت ازداد رأس المال تدريجيا وصل الى ٣٧٫٧١٠ جنيه والفائض الى ١٥٫٩٠٦ جنيه •

والمعتقد أن لفشل بنك المدخرات أثر كبير فى هذا التقدم والتحول بالنسبة لجمعية روتشديل ، هذا بالطبع بالاضافة الى عوامل أخرى ، ففى عام ١٨٦٠ خلفت الطبقات العاملة فى انجلترا وراء ظهورها ما كان يطلق عليه بسنى القحط المشهورة فى العقد الرابع عشر من القرن التسع عشر ، وكان هناك تقــدمها ملحوظا فى الاجور ، اذ يذكر مســتر ج•ه• وود G. H. Wood أن معدل الاجور قد ازداد فيما بين عام ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ بما يعادل ١٤٪ غير أنه يذكر أيضا أن تكاليف المعيشة قد ارتفعت بنســبة مقدارها ١١٪ ، كما وأن البطالة قد انخفضت نسبيا ، وصارت الاجور منتظمة عما كانت عليه من قبل •

جدول رقم (١) يوضح تطور جمعية روتشديل فيما بين عامى ١٨٤٤ ، ١٨٨٠

السنة	العضوية	رأس المال	المبيعات	الفائض	النسبة المئوية لزيادة العضوية	النسبة المئوية لزيادة رأس المال	النسبة المئوية لزيادة المبيعات	النسبة المئوية لزيادة الفائض
١٨٤٤	٢٨	٢٨	—	—	—	—	—	—
١٨٤٥	٧٤	١٨١	٧٦٠	٢٢	١٦٤	٥٤٥	—	—
١٨٤٦	٨٠	٢٥٢	١١٧٠	٨١	٨	٣٩	٦١	٢٦٨
١٨٤٧	١١٠	٢٨٦	١٩٢٥	٧٢	٣٧	١٣	٦٨	١١
١٨٤٨	١٤٠	٣٩٧	٢٢٧٦	١١٨	٢٧	٣٩	١٨	٦٤
١٨٤٩	٣٩٠	١١٩٤	٦٦١٢	٥٦١	١٧٩	٢٠١	١٩١	٣٧٥
١٨٥٠	٦٠٠	٣٣٠٠	١٣١٨٠	٨٩٠	٥٤	٩٢	٩٩	٥٩
١٨٥١	٦٣٠	٢٧٨٥	١٨٦٣٨	٩٩١	٥	٢١	٣٤	١١
١٨٥٢	٦٨٠	٣٤٧١	١٦٣٥٢	١٢٠٧	٨	٢٥	٧	٢٢
١٨٥٣	٧٢٠	٥٨٤٨	٢٢٧٦٠	١٦٧٥	٦	٦٨	٣٩	٣٩
١٨٥٤	٩٠٠	٧١٧٣	٣٣٣٦٤	١٧٦٤	٢٥	٢٣	٤٦	٥
١٨٥٥	١٤٠٠	١١٠٣٣	٤٤٩٠٣	٣١٠٦	٥٦	٥٤	٣٥	٧٦
١٨٥٦	١٦٠٠	١٥١٤٢	٦٣١٩٧	٣٩٢٢	١٤	١٧	٤١	٢٦
١٨٥٧	١٨٥	١٢٩٢١	٧٩٧٨٨	٥٤٧٠	١٥	١٧	٢٦	٣٩
١٨٥٨	١٩٥٠	١٨١٦٠	٧٤٦٨٠	٦٢٨٤	٥	٢٠	٦	١٥
١٨٥٩	٢٧٠٣	٢٧٠٦٠	١٠٤٠١٢	١٠٧٣٩	٣٩	٤٩	٣٩	١٧
١٨٦٠	٣٤٥٠	٣٧٧١٠	١٥٢٠٦٣	١٥٩٠٦	٢٧	٣٩	٤٦	٤٨

١٨٦١	٣٩٠٠	٤٢٩٦٥	١٦٧٢٠٦	١٨٠٢٠	٤٤	١٤	١٦	١٣
١٨٦٢	٣٥٠١	٣٨٤٦٥	١٤١٠٧٤	١٧٥٧٤	١٠	١٠	٢٠	٢٠
١٨٦٣	٤٠١٣	٤٩٩٦١	١٥٨٦٣٢	١٩٦٧١	١٥	٣٠	١٢	١٢
١٨٦٤	٤٧٤٧	٦٢٠١٥	١٧٤٩٣٧	٢٢٧١٧	١٨	٢٤	١٠	١٥
١٨٦٥	٥٣٢٦	٧٨٧٧٨	١٩٦٢٣٤	٢٥١٥٦	١٢	٢٧	١٢	١١
١٨٦٦	٦٢٦٤	٩٩٩٨٩	٢٤٩١٢٢	٣١٩٣١	١٧	٢٧	٢٧	٢٧
١٨٦٧	٦٨٢٣	١٢٨٤٣٥	٢٤٨٩١٢	٤١٦١٩	٩	٢٨	١٤	٣٠
١٨٦٨	٦٧٣١	١٢٣٢٣٥	٢٩٠٩٠٠	٣٧٤٥٩	١	٤	٢	١٠
١٨٦٩	٥٨٠٩	٩٣٤٢٣	٢٣٦٤٣٨	٢٨٥٤٢	١٤	٢٤	١٩	٢٤
١٨٧٠	٥٥٦٠	٨٠٢٩١	٢٢٣ ٢١	٢٥٢٠٩	٤	١٤	٥	١٢
١٨٧١	٦٠٢١	١٠٧٥٠٠	٢٦٤٥٢٢	٢٩٠٢٦	٨	٣٤	١٠	١٥
١٨٧٢	٦٤٤٤	١٣٢٩١٢	٢٦٧٥٧٧	٣٣٦٤٠	٧	٢٤	٩	١٦
١٨٧٣	٧٠٢١	١٦٠٨٨٦	٢٨٧٢١٢	٣٨٧٤٩	٩	٢١	٧	١٥
١٨٧٤	٧٦٣٩	٣٩٠٨١٤	٢٩٨٨٨٨	٤٠٧٦٩	٩	٢٠	٤	٥
١٨٧٥	٨٤١٥	٢٢٥٦٨٢	٣٠٥٦٥٧	٤٨٢١٢	١٠	١٧	٢	٨١
١٨٧٦	٨٨٩٢	٢٥٤٠٠٠	٣٠٥١٩٠	٥٠٦٦٨	٦	١٣	٠	٥
١٨٧٧	٩٧٢٢	٢٨٠٣٧٥	٢١١٧٥٤	٥١٦٤٨	٩	١٠	٢	٢
٨١٧٨	١٠١٨٧	٢٩٢٣٤٤	٢٩٨٦٧٩	٥٢٦٩٤	٥	٤	٤	٢
١٨٧٩	١٤٠٢٧	٢٨٨٧٣٥	٢٧٠٠٧٢	٤٩٧٥١	٢	١	٩	٥
١٨٨٠	١٠٦١٣	٢٩٢٥٧٠	٢٨٣٦٥٥	٤٨٥٤٥	٢	٢	٥	٢

ومما لا شك فيه أن رأس المال المتجمع لدى جمعية روتشديل جاء معظمه من الطبقات العاملة التى كانت تبذل أقصى جهدها للادخار ، خاصة وأن عدد الذين ازداد رخاؤهم نسبيا أخذ فى الازدياد ، وكان من بين هؤلاء من استطاعت الحركة التعاونية أن تزيد من عدد أعضائها ، وبالتالى مقدار رأس مالها •

وهذا التقدم لم يتحقق الا على أساس الانتفاع بدروس الماضى ومعرفة أخطائه ، فان رواد روتشديل تجنبوا البيع بالأجل لكى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم ، وصمموا على اعطاء عائد المعاملات للأعضاء منذ البداية ، فأثبتوا أن مشروعهم ناجحا ومربحا لمن يسهم فيه ، كما أنهم اعتمدوا على أنفسهم وجعلوا الادارة فى أيدى الجميع ونجاح المشروع مسئولية الجميع ، وساروا الى الأمام بطريق النمو الحثيث والبناء المستقر ، ونبذوا خيالات الماضى فجاءتهم الثمرة التى يحصل عليها كل من يبذل مجهودا واقعيا ، ويزرع فى أرض خصبة ولا يتعجل حصاد زرعه أو ينتظر أن يجمع أكثر مما غرس •

مابعد تجربة روتشديل :

فى عام ١٨٤٤ (عندما بدأت جمعية رواد روتشديل) كان الرأى العام البريطانى « يعتبر التعاون والاشتراكية دعوة واحدة وأنهما لا يمثلان شيئين مختلفين »(١) ، ولعل هذا هو السبب فى أن الحركة التعاونية لم تحظ بتأييد كبير فى تلك المرحلة • ولم يكن يدور بخلد التعاونيين فى ذلك الوقت أن الاشتراكية قد تعنى تأمين المشروعات الخاصة ، أو ملكية الدولة لعناصر

---

(١) G.D.H. Cole; The British Co-operative Movement; (Allen & Unwin. London 1951, p. 29).

الانتاج لأن الملكية الجماعية التى كانوا يهدفون اليها — أى الاشتراكية فى نظرهم — كانت الملكية جماعية محلية ، لمجموعة من الأفراد فى نطاق « مستعمرة » تقوم بالانتاج والتوزيع ، ونوع من الحكم المحلى والحياة العامة الجماعية للأعضاء المنتظمين فيها ويشمل هذا التنظيم بطبيعة الحال بناء المنازل التى « يمتلكها » الأعضاء داخل المستعمرة ، واقامة وحدات الانتاج وامتلاك الأراضى الزراعية ، وكل ما يحقق الهدف الاشتراكى التعاونى . وكانت الرأسمالية فى نظر رواد التعاون الأوائل هى « العدو الذى يجب محاربته بكل سلاح يقع تحت أيديهم . ولهذا كانوا يرون أن من واجبهم القضاء على نظام الانتاج الرأسمالى القائم على دافع الربح واستبداله بنظام جديد للحياة يقوم على أساس الحرية والخدمة المتبادلة »(١) .

ولكن هذه المثل سرعان ما اختفت عندما أرسيت الاسس العملية لمشروع روتشديل وثبت نجاحها وعندما اتضح أن اقامة مستعمرة جماعة نموذجية ذات اكتفاء ذاتى ضرب من الخيال ، وأنه لن يفيد الحركة التعاونية فائدة عملية . صحيح أن رواد روتشديل أقاموا عددا من المنازل السكنية للأعضاء ولكنهم لم يقيموا مستعمرة مستقلة خارجة عن نطاق الحياة الاجتماعية السائدة ، وصحيح أنهم أقاموا جمعية انتاجية ومطحنا للغلال لكنهما لم يكونا جزءا مكملا لمشروع مغلق ضمن مستعمرة

---

(١) G.D.H. Cole; same reference; pp. 29-30

ونرجو من القارىء أن يرجع الى ما كتبناه فى دراستنا الاقتصادية لما استخلصه الكتاب والمؤرخون من مبادىء روتشديل ، والمبادىء التى أقرتها المؤتمرات التعاونية الدولية فى كتابنا « اصول التنظيم والادارة فى المؤسسات والتعاونيات » . الناشر مكتبة عين شمس ١٩٧٠ وذلك لأن هذه الدراسة ضرورية للالمام بموضوع كتابنا هذا .

متـــكاملة ، بل ترك مصيرهما للظروف العملية فاشـــترتهما مجموعة من الجمعيات التعاونية الاستهلاكية فيما بعد •

ومع مضى الزمن ثبت لرواد روتشديل أنه لا جدوى من التشبث بفكرة العمل لانشاء مستعمرة ومن ثم وجهوا جهودهم الى انشاء جمعية لتجارة الجملة تمتلكها وتديرها جمعيتهم الاستهلاكية بالاشتراك مع كل الجمعيات الأخرى الراغبة فى الانضمام الى المشروع • وفعلا تم لهم ذلك ، وسرعان ما أثبت مشروع الجملة نجاح الفكرة ، وكان لهذا النجاح أكبر أثر فى انتشار التعاون ونجاح أغلب الجمعيات التعاونية فى عملياتها •

وبديهى أنه كان بانجلترا فى منتصف القرن التاسع عشر(١) جيـــل جديد من التعاونيين لم يكن متأثرا بالأفكار الخيالية التى نادى بها أوين وأتباعه ، ولا بالمثل الاشتراكية المسيحية المماثلة ، ولا بنوع آخـــر من الاشتراكية الجماعية ، وهذا الجيل وجد فى الحركة التعاونية وسيلة عملية ناجحة للمتاجرة بأسلوب يحقق مصلحة الطبقات ذات الدخل الضعيف ، وذلك ببيع سلع جيدة مضمونة بسعر عادل ، بالاضافة الى كون المشاريع التعاونية سبيلا « لتثمير » المدخرات الصغيرة فى الحصول على العائد • ولم يكن هذا الجيل متأثرا بالمثل التعاونية القـــديمة ، وانما تأثر بالآراء التى نشرها جون ميتشل الذى يرجع اليه الفضل فى ادخال مبدأ جديد على أسس التعاون ، وهو جعل النشـــاط التعاونى محصـــورا فى أيدى الجمعيات الاستهلاكية ، ونبذ فكرة التضامن بين المنتجين والمستهلكين فى ادارة الحركة التعاونية(٢) • وقد جعل ميتشل من «السيطرة الاستهلاكية»

---

(١) أى بعد انقضاء مدة على دعايات أوين وأتباعه . وبعد نجاح تجربة روتشديل خلال عشر سنوات أو أكثر .

(٢) كول : المرجع السابق صفحة ٣١ .

هذه فلسفة جديدة ، اجتذب بها الى جانبه الوف المؤيدين ممن كانوا يتجنبون الحركة فيما سبق لتشبعها بأفكار أوين وبالاشتراكية المسيحية ، وعلى يد جون ميتشل وجدت الحركة التعاونية رواجا جديدا مطرد النمو ، واستمرت هكذا حركة تعاونية يغلب عليها الطابع الاستهلاكى حتى يومنا هذا[1] .

وفى ختام هذا التحليل التاريخى للحركة التعاونية بانجلترا ، يجدر بنا أن نذكر — فى عجالة — بعض التيارات الاجتماعية التى كان لها أثر مباشر ، أو غير مباشر على الحركة التعاونية ، ذلك لأن الفترة بين ١٨٧٠ — ١٩٠٠ كانت فترة تقلبات دورية نظرا لطبيعة النظام الاقتصادى من ناحية . ولوجود عدد من المؤثرات السياسية الخارجية من ناحية أخرى[2] . وقد كانت الحركة التعاونية تلك الفترة مهتمة بتنظيم نفسها وتقوية جهتها لصالح الأفراد ضد المجتمع أو ضد طبقة معينة ، لذلك أمن الأفراد جانبها وأصبح المسئولون والسياسيون يعترفون بفضلها كركن من أركان التنظيم الاجتماعى ، وانتفت الفكرة التى كانت عالقة بالأذهان قديما وهى فكرة أن التعاون حركة ثورية تريد قلب النظام القائم فى المجتمع ، ومن ثم أصبح رجال الدين يباركون الحركة التعاونية ، والسياسيون يمتدحونها ، والأهم من ذلك ، أن الاشتراكيين المتعدلين رأوا فيها صديقا يتفق مع آرائهم فى تطوير المجتمع عن طريق الأداة التشريعية والاتجاه به نحو مثل العدالة الاجتماعية والتقليل من الفوارق الطبقية .

---

(١) هذا طبعا مع الاعتراف بوجود بعض النشاط الانتاجى فى انجلترا اليوم — ولكنه جزء يسير اذا ماقيس بجوار مجموع النشاط الاستهلاكى للتجارة والتجزئة .

(٢) كظهور المانيا كدولة قوية الاتحاد ، وهزيمتها لفرنسا ، ومنافستها لا نجلترا فى أوروبا وفى مناطق النفوذ ، وتقربها من روسيا وأمبراطورية النمسا .. مما جعل انجلترا تفكر فى ضرورة حل مشاكلها الداخلية وتقوية جبهتها لمواجهة الخطر الألمانى .

ولعله من حسن حظ انجلترا فى تلك الفترة ، ومن حسن حظ الحركة التعاونية كذلك أن وجد فى كراسى الحكم وقتذاك مجموعة من السياسيين اقتنعوا بضرورة تحقيق الاستقرار الداخلى عن طريق ادخال التشريعات الديمقراطية اللازمة لكى تقوى الجبهة الداخلية وتأمن شر الثـورات والانقلابات السياسية • ومن ثم ظهرت عـدة تشريعات تعترف بحقوق لعمال • وتحرم تشغيل الأطفال دون سن معين وتمنح العمال الزراعيين حق الانتخاب هذا الى عدد آخر من التشريعات الديمقراطية • وقوانين التعليم الالزامى الاجبارى (١٨٨٠) وجعـل التعليم الأولى بالمجان (١٨٩١) وقوانين الصحة العامة ، والتشريعات المختلفة لتنظيم الحكومات المحلية الى غير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره •

كل هذه الاتجاهات ساعدت على تجنيب المجتمع البريطانى شرور الانقلابات السياسية ، وأثبتت للرأى العام أن الديمقراطية السياسية على الأقل يمكن أن تتحقق عن طريق الجهاز التشريعى القائم ، وأن الأعتراف بحقوق الطبقات العاملة أمر لابد منه أيا كان القائمون بالحكم • وفى هذا الجو من الاستقرار النسبى وانتشار التعليم والخدمات العامة المجانية وانتهاء روح الفردية التى سادت العصر الفيكتورى وانبثاق روح جديدة أساسها الاعتراف الشـامل بالحقوق العامة •• كتب للحـركة التعاونية البريطانية أن تسير قدما نحو أهدافها العملية لخدمة جميع الاعضاء بغض النظر عن وضعهم الطائفى أو الطبقى •

المبحث السادس

التعاون فى الدول الصناعية الأخرى

فرنسا :

لم تـــكن الحركة العمالية[1] فى فرنسا تدريجية ومحكمة التوقيت والتطور كما فى بريطانيا ، ولم تكن كذلك وليدة الأحداث والتطورات ، ولـكنها كانت تتشكل طبقا لفكرة أو نمط فكرى لشخص معين ، ولهذا كان لها أساس فكرى منذ البداية . وكان لكل صاحب فكرة سياسية أو اجتماعية يجد فى مثل هذا الجو مجال القيادة الفـــكرية والفعلية . فان سان سيمون وفوريه[1] كانا قد مهدا لذلك الطـــريق بمهاجمتهما المجتمع القائم على أساس الملكية الخاصة ، ثم جاءت الثورة الفرنسية وأحدثت ذلك الأثر الانقلابى الهائل فى الفكر السياسى والاجتماعى ، ثم كانت فترة « المجد » الذى سعى نابليون بونابرت لاقامته وما تبـــع ذلك من هزيمة فرنسا والعودة بها الى نظام حكم يخضع أو يقع تحت ضغط ورقابة دول أوربا المنتصرة .

---

(١) يضيق المقام لسرد تاريخ مفصل للتعاون فى كل من الدول الصناعية ولذا فسنكتفى بتحليل المظاهر المميزة للتعاون ونشأته فى كل منها ومدى علاقته بالحركة العمالية والظروف الاقتصادية والسياسية .

(٢) فوريه اقتصـــادى فرنسى أفنى ماله وحياته فى خدمة الفـــكرة الاشتراكية لتنظيم المجتمع ولكن أفكاره كانت (خيالية) وسان سيمون اشتراكى خيالى آخر من معاصرى الثورة الفرنسية — ويعتبر مؤسس الاشتراكية الفرنسية .

L.C.A. Knwles; Economic Development in the 19th Century; (Routiedge London 1936) pp. 141-142.

ومرت فرنسا فيما بين ١٨٣٠ — ١٨٤٨ بفترة اضطرابات سياسية مرة أخرى ، وهنا ظهر الاقتصادى الاشتراكى لويس بلان (Louis Blanc) الذى نشر عام ١٨٣٩ فلسفته الفكرية فى كتاب أسماه « تنظيم العمل » l'organisation du Travail وبين فيه حق كل فرد فى العمل ، كما اقترح تغيير نظام المجتمع باقامة مصانع أو « ورش » تعاونية تتدرج نحو السيطرة التامة على الصناعة فى فرنسا ، واقترح أن تهيىء الحكومة رأس المال اللازم لاقامة هذه المصانع . وأن يقسم العائد منها الى ثلاثة أقسام : جزء يأخذه العمال وجزء للعاجزين وجزء لتجديد المعدات الرأسمالية ، أما المنشآت التجارية فرأى أنها ستتحد وستلغى تدريجيا نظام المنافسة القائم(٢) .

هذه على ما يبدو كانت النواة الأولى للفكر التعاونى فى فرنسا ، ولا شك أن مثل هذه الأفكار الاشتراكية كانت تجد فى ذلك الجو السياسى المكفهر قبولا وترحيبا من عامة الشعب ، لأنه تخيل فيها وسيلة لانشاء مجتمع على أساس تعاون انتاجى يأخذ تمويله من الحكومة ثم يسيطر تدريجيا على الصناعة ، وهذا هو غاية ما تتمناه الطبقة العاملة .

وقد اجتاحت فرنسا مجاعة عام ١٨٤٦ — ١٨٤٧ التى تمخضت عن حزبين سياسيين ، أحدهما جمهورى يريد تحقيق الاصلاحات الاجتماعية ، والأخر اشتراكى يريد الغاء نظام الملكية الخاصة . وكان لويس بلان قد كلف برئاسة لجنة مكونة من ٧٠٠ عامل للبدء فى تنفيذ خطته لاقامة مصانع تعاونية ولكنه تباطأ ووقف عاجزا عن التنفيذ العملى لما وضعه من تصميم نظرى وحاولت الحكومة من جانبها أن تقيم مصانع حكومية قوية توظف فيها آلاف العمال العاطلين ، ولكن عدم وجود طلب فعال

وعمل كاف للمهرة من العمال وضخامة التكاليف اللازمة لانشاء المصانع ادى الى فشل الفكرة وظهور عدم جدواها من الناحية العملية(١) ثم اجريت انتخابات ففاز الحزب الجمهورى المتعدل على حزب بلان المتطرف وبذلك فشلت آماله وخططه وفر الى انجلترا ، ولكنه ترك وراءه تقليدا وفكرا تعاونيا حاولت فرنسا خلال العشرين سنة اللاحقة أن تحققه(٢) ومنذ ذلك الوقت ظلت فرنسا تتذبذب بين أفكار محافظة تؤيدها الطبقات المتوسطة ومجالات اشتراكية ضعيفة ، ولكن فكرة امكان تحقيق تطور اجتماعى فى المجتمع الفرنسى عن طريق الانتاج التعاونى ظلت تخامر أذهان الملايين .

ثم جاء نابليون الثالث بعد ثورة ١٨٤٨ وسار فى سياسة تقدم صناعى واقتصادى سريع ، فحجب بعض الوقت الأفكار التعاونية والاشتراكية . وعلى الرغم من أنه كان شديد الضغط على الحركات العالية ، فانه عاد الى تخفيف تلك القيود بعد عام ١٨٦٠ . فبدأت الأفكار التعاونية تعود الى الظهور وتتمشى مع تقاليد لويس بلان . ولكن الأعضاء التعاونيين كانوا غير جادين فى الأفكار التعاونية ، فخسرت حركتهم بسبب انغماسهم فى النقاش السياسى(٣) ، ثم انهارت نهائيا عام ١٨٦٥ ، وبات واضحا ان التعاون الانتاجى كوسيلة لتطوير المجتمع طريق غير عملى فاشل ، ولهذا نجد أن العمال بدأوا يقذفون بأنفسهم فى أحضان الأفكار « الدولية » أو اشتراكية كارل ماركس الثورية . ثم جاءت الحرب

---

(١) E. Levasseur; Histoire de Classer Ouvriers de 1789-1870. (quoted by Knowels p. 143.)

(٢) Knowels المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٣) سنورد فى الصفحات المقبلة أهمية الحياد السياسى كأساس للتعاون السليم .

البروسية الفرنسية فقضت على أمل العمال فى تحقيق أهدافهم الاشتراكية فترة أخرى .

ويذكر المؤرخون أنه كانت هناك محاولات بسيطة مبعثرة للتعاون الاستهلاكى فى فرنسا وأن بعضها يرجع الى ما قبل انشاء جمعية روتشديل ، فقد نشر جودارد سنة ١٩٠٤ M. Godard كتابا عن أصل التعاون بمدينة ليون ، ذكر فيه أنه قد تأسست فى سنة ١٨٣٥ جمعية تسمى Le Commerce Verdique et Social de Lyon. كما تأسست جمعيات تعاونية أخرى للاستهلاك — منها جمعية Fuch Stephnoise وجمعية سانت اتيين St. Etienne التى يرجع انشؤها الى عام ١٨٥٥، والمخبز التعاونى المسمى(١) Caisse de Paiss

وعلى الرغم من أن الجمهور كان مهتما فيما بين سنتى ١٨٦٨ و ١٨٨٣ بالانتاج التعاونى والائتمان التعاونى ، فقد كان هناك ما يقرب من مائة جمعية تعاونية للاستهلاك تكونت بفضل مالون Fenoit Malon الاشتراكى الفرنسى الذى كان يحبذ الفكرة التعاونية ولا يميل الى الفكرة الماركسية . وفى ذلك الوقت وقف بجوار التعاون وأيده بعض الاقتصاديين المعروفين أمثال ليون ساى Leon Say وجول سيمون Jules Simon ووالراس Walras ولم تكن هناك حركة قوية للتعاون الاستهلاكى قبل ١٨٨٥ ، وقد تألفت فى هذه السنة مدرسة نيم School of Nime من جماعة صغيرة من التعاونيين كان من بينهم Emil de Boyve وفابر Fabre الذى كان من أتباع فوريه Fouriet وشارل جيد . ومنذ ذلك التاريخ أخذت حركة التعاون الاستهلاكى فى

(١) Consumers' Cooperative Societies, by Charles Gide, Translated from the french, by the Staff of the Cooperative, Reference Library, Dublin. Cooperative Union, Manchester, pp. 21-26.

فرنسا فى الانتشار السريع • وفى المؤتمر الأول الذى عقد بباريس سنة ١٨٨٥ ، تقرر تكوين اتحاد مشابه للاتحاد البريطانى وهو يتكون من مجلس مركزى واتحاد للشراء ، كما تقرر فيه عقد مؤتمرات سنوية واصدار صحيفة تنطق باسمه • غير أنه حدث فى سنة ١٨٩٠ أن انشطرت الحركة التعاونية شطرين ، فقد رأت بعض الجمعيات أن تخصص قسطا من أرباحها لنشر الدعوة الاشتراكية ولمساعدة الحزب الاشتراكى ، ورأى البعض الآخر وجوب المحافظة على الحياد السياسى وقصر استغلال الأرباح فى نشر النشاط التعاونى ، فانفصلت الجماعات ذات الطابع الاشتراكى عن الجمعيات المسماة بالجمعيات البورجوازية • وقد ألفت الجماعات الأولى سنة ١٨٩٦ اتحادا أطلق عليه

Bourse coopérative des société socialistes des consommation.

« وقد دام هذا انفصال ٢٢ عاما ، حيث عاد للتعاون وحدته فى المؤتمر المنعقد فى ٢٨ ديسمبر ١٩١٢ بمدينة تور Tours فى صورة اتحاد قومى يسير على هدى مبادىء روتشديل وبخاصة من ناحية الحياد الدينى والسياسى »[1] •

وقد افدهر هذا الاتحاد وأمكنه أن يقدم خدمات قيمة للشعب الفرنسى وللمبادىء التعاونية •

المانيا :

وقد ازدهر هذا الاتحاد وأمكنه أن يقدم خدمات قيمة للشعب (Credit Unions) يعد نقطة بدء الحركة التعاونية فى المانيا ، وقد كان

---

(١) اقتصاديات التعاون — دكتور جابر جاد عبد الرحمن (١٩٥٦ ، ص ٥٩ مكتبة النهضة المصرية .

ذلك حوالى منتصف القرن التاسع عشر حينما بدأ فردريك وليم رايفايزن(١) (Frederick Will. Raffeisen) بوحدات صغيرة فى المناطق الريفية ، فكان يقرض الأفراد مبالغ صغيرة بصفة شخصية : ثم جاء شولزديلتش (Schulze Delitzsch) فعمل على توسيع الفكرة باقامة جمعيات كبيرة للاقراض بين عمال المدن ، وتبعها وليم هاس (Hass) فدعا الى ادماج جمعيات رايفايزن وديلتش(٢) • غير أن الحركة التعاونية فى ألمانيا ظلت تتعثر مدة من الزمن تحت ضغط أفكار فرديناند لاسال زعيم الاشتراكية الألمانية ، فقد كرس لا حياته لخدمة قضية العمال ، وعمل على تكوين جبهة سياسية قوية منهم عندما تولى بسمارك رئاسة الحكومة ، وكان يرى أن كل محاولة لخفض تكاليف المعيشة انما هى بمثابة عائق يصرف العمال عن الكفاح من أجل تحسين مستوى الأجور ، وهى كذلك من عوامل ابطاء الحركة الاشتراكية •

ومن المعروف أن التقدم الصناعى فى ألمانيا ساعد على تكوين جبهة عمالية قوية منظمة تمثلت فى نقابات العمال من ناحية ، وفى الحزب الاشتراكى الديمقراطى من ناحية أخرى • والألمان — شأنهم شأن الفرنسيين — يتحمسون بطبيعتهم للفكرة النظرية ، ولكنهم يفرقونهم فى القدرة على التنظيم والعمل الدقيق ، لذلك كانت نقاباتهم ذات قوة مركزية قوية ، بل كانت جبهة قوية كثيرة ما أثارت ثائرة الهيئة الحاكمة ، حتى

---

(١) لمعرفة نظام رايفزن للاقراض يرجع الى كتاب التعاون الزراعى تأليف دكتور ابراهيم رشاد المطبعة الأميرية بالقاهرة (١٩٣٦) صفحات ١٠٣ ، ١٠٩

(٢) Emory S. Bogadus : Hisory of Cooperation; (Cooperative League of the U.S.A., 1946) p. 32.



صارت هـدفا للضغط المستمر منها(١) ، وعلى العكس من ذلك الحركة البريطانية مثلا ، فقد كانت مسالمة ترضى بالاصلاحات التدريجية والتشريعات المخففة .

وفى عام ١٨٩٢ ظفرت الحركة العمالية باعتراف المسئولين ، وكان هذا بدء انقسامها الى مدرستين فكريتين : مدرسة الاصلاحيين(٢) ومدرسة الثوريين ، ولعل اعتراف الحكومة بها ما كان خطوة سياسية صائبة قصد بها اضعافها ، ذلك لأنه كان كلما صدرت تشريعات اصلاحية وحصلت الطبقة العاملة منها على ميزات اجتماعية جديدة ، ازدادت جبهة الاصلاحيين قوة بخلاف جبهة الثوريين ، فانها كانت تزداد ضعفا . ثم انه الى جانب النقابات الاشتراكية الديمقراطية كانت النقابات المسيحية تصادق الحكم القائم ولا ترغب فى تغييره ، لا عن طريق السلم ولا بطريق العنف . أما نقابات الأحرار Liberal T.U.S. فقد ركزت جهودها على برامج اقتصادية محدودة ومباشرة . فاذا تركنا هذا الجانب ونظرنا الى الجانب الآخر الى جبهة أصحاب الأعمال وجدناهم أكثر تنظيما وقوة ، حتى لقد كان يؤمن بعضهم بعضا ضد مخاطر الاضرابات والاضطرابات العمالية . واذا أضفنا الى كل هذه العوامل أن ألمانيا حققت بعد الوحدة تقدما اقتصاديا صناعيا وسياسيا كبيرا ، أمكننا أن نستنتج من مجموع ذلك السبب الذى حاول دون أن تظهر فى ألمانيا حركة عمالية قوة ، وعرفنا لماذا لم تكن هناك بواعث لقيام حركة تعاونية انتاجية ، ولا تفكير فى نشر مبدأ التعاون كنظام يحل محل النظام الرأسمالى .

---

(١) Knowels : Economic Development. Same Ref., pp. 172-173.

(٢) يلقبون أحيانا بالمنقحين

والجدير بالذكر فى تاريخ التعاون الألمانى أن جهود شولزديلتش التى بدأت ضعيفة حققت نجاحا على مر الأيام ، لأنها كانت تحظى بالتأييد من مختلف الجهات المعتدلة على أساس أن التعاون وقاية ضد تعاليم لاسال وكارل ماركس ، وقد استمر الاقراض التعاونى يحتل المركز الأول فى الوقت الذى كانت جمعيات التعاون الاستهلاكى يحتل فيه المركز الثانى ، لأن وظيفتها فى نظر الاتحاد العام للجمعيات التعاونية(١) كانت تدور حول مساعدة العمال على الادخار لكى يكونوا مصدرا من مصادر التمويل بالنسبة لبنوك الشعب • ثم اطراد النمو الاقتصادى فى ألمانيا فى بدء القرن العشرين فكان العامل الأساسى فى نشر الجمعيات التعاونية الاستهلاكية والزراعية فى ألمانيا ، حتى بلغ عدد الأسر المنضمة اليها فى سنة ١٩٣٠ حوالى أربعة ملايين أسرة(٢) •

الولايات المتحدة الأمريكية :

لم تكن الحركة العمالية فى الولايات المتحدة فى يوم من الأيام قوية الى الدرجة التى تؤثر بها على الفكر السياسى والاقتصادى فى البلاد ، كما أن طبيعة التطور الاقتصادى فى الولايات المتحدة جعل منها دولة دائمة النمو ، كثيرة الفرص ، خصبة صالحة لنجاح المشروعات الخاصة فلم تظهر ثمة حاجة الى التنظيم الاشتراكى أو الانتاج التعاونى • لذلك نرى غالبية الجمعيات التعاونية فى بداية الحركة جمعيات استهلاكية ، أو جمعيات زراعية قامت بدافع من المصلحة المشتركة لتسويق الحاصلات •

---

(١) هذا الاتحاد العام الذى أسسه شولز فى مدينة برلين كان المركز الموجه للحركة والعمل الفعال فى نشرها •

(٢) C.R. Fay : Cooperation at Home and Abroad, Vol II (King, London, 1939) Chap. 9.

والسبب فى الحركة العمالية فى الولايات المتحدة لم تحمل طابعا ثوريا ولم تلجأ الى وسائل عنيفة ، هو أن العامل الأمريكى لم يشعر بالعداء نحو الرأسمالية ولم ير ضرورة للتكتل ضدها ، ومن ثم لم تجد الأفكار الثورية فى الجمعيات العمالية رواجا ولا فرصة لنجاح(١)

وكان اتحاد العمل الامريكى الذى قام عام ١٨٨٦ نموذجا للروح المعتدلة التى سادت صفوف العمال فى أمريكا ، لأنه ضم أغلب النقابات وقام على أسس منظمة محافظة تؤمن بالرأسمالية وأركان الرأسمالية وتهدف الى أن يحصل الأعضاء على أحسن ظروف • ثم ان العامل الأمريكى كان دائما يأمل فى تحسين حالته وفى أن يصبح هو الآخر صاحب عمل على أى أوجه ، وكانت فرص العمل أمامه كثيرة ولم تكن هناك قيود تحول دون تنقل العمال وتغيير مهنتهم ، ثم الأرض الزراعية كانت رحبة واسعة لمن يريد أن يحترف مهنة الزراعة ، ولم تتهيأ فرصة لتكوين حزب عمال قوى فى السياسة كما حدث فى انجلترا ، لأن التنظيم المحكم للحزبين الجمهورى والديمقراطى لم يسمح من الناحية العملية بقيام حزب ثالث •

هذا الى أن الحركة التعاونية فى الولايات المتحدة كان نشاطها الاقتصادى فى القطاع الزراعى أكثر منه فى أى قطاع آخر • ولم تأخذ صفة الولاء للعمال وايثار مصالحهم والرغبة فى تغيير النظام الاجتماعى من أجلهم • وربما كان من الأسباب التى ساعدت على ذلك أن الزراعيين فى الولايات — حاربوا الحركة العمالية منذ أوائل عهدها وبخاصة

الولايات — حاربوا الحركة العمالية منذ أوائل منذ أوائل عهدها وبخاصة

---

(١) نولز : المرجع السابق صفحة ٢٠٠ .

(٢) A. Levine, Development of Syndicalism in America; political Science Quarterly, 1913, p. 478.

بعد أن أضرب عمال السكك الحديدية وظهرت تضارب المصالح بين الفريقين على حقيقته المزارعون يريدون خفض أجور النقل بالسكك الحديدية ، وكان العمال يرفضون ذلك . ثم ظهر فريق من « العمال الثورين »(١) يهدف الى الغاء الملكية فناصبهم الملاك العداء ، و مع ذلك أخذ عمال المصانع يطالبون بقوانين تحميهم من هجرة العمال الصينيين وغيرهم ، فعارض الزراعيون ذلك وطالبوا بالحرية الاقتصادية . هذه الظروف وغيرها لم تساعد على قيام تنظيم عمالى اشتراكى أو تعاونى ، يتوخى مبادىء التعاون وأهدافه ، وانما كانت فكرة التعاون ضيقة لا تكاد تتعدى التعاون لتسويق منتجات الزراعيين وحماية مصالحهم ، والتعاون الاستهلاكى السلمى لصالح الجمهور أو التعاون الاقراضى لدعم مشاريع خاصة صغيرة .

هذه هى الأفكار التى صادفت رواجا فى المجتمع الأمريكى ، ولم تظهر فيه حاجة الى علاج مساوىء اجتماعية كتلك التى ولدتها الثورة الصناعية ، بل كانت البيئة بطبيعتها تساعد على النمو السريع للمشاريع الخاصة المتعددة وتجعل من نظام المنافسة الحرة نظاما معقولا ومقبولا عند المجتمع الأمريكى وذلك لأنه بعد الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة ، قامت صناعة ضخمة للحديد والصلب سرعان ما تقدمت تقدما هائلا وأدت الى ارتفاع مستويات الدخول لجميع الفئات والهيئات ، كما ساعدت الحماية الجمركية على ازدهار وصناعة نسج الحرير والقطن فاستفاد بذلك المزارعون والصناعيون والعمال والمستثمرون . وفى خلال

---

(١) حركة « فرسان العمال » Knights of Labour جمعية سرية تكونت عام ١٨٦٩ وتهدف الى ضم جميع العمال ، ولكنها انهارت عام ١٨٨٨ ليحل محلها العمال الأمريكى .
انظر Levine المرجع السابق .

هذه الفترة من التقدم الصناعى والى قيام الحرب العالمية الأولى ، كانت الظروف تساعد على نمو الكارتلات والشركات الاحتكارية ؛ ولكن الكونجرس الامريكى تيقظ لخطر الاحتكارية وضرره على المنتج الصغير وهى فكرة المنافسة المشروعة التى كانت السند القوى فى الابقاء على النظام الرأسمالى الحر ، فأصدر عدة تشريعات وتنظيمات لمحاربة الاحتكار ، ولم تدع الحكومة الأمريكية للعمال أو صغار المستهلكين أو أصحاب المشروعات الفردية الصغيرة ذريعة تبرر لهم القيام بحركة لاحلال نظام آخر محل الرأسمالية •

روسيا القيصرية :

أما روسيا فقد تأخر فيها ظهور الصناعة ، كذلك الحركة العمالية أكثر تأخرا من الصناعة بسبب الضغط الشديد الذى كانت تعانيه من جانب الحكومة الأوتوقراطية ، فقد كانت الحكومة تفترض فى نفسها أنها هى التى تتبنى مصالح العمال وترعاها ، وكان معنى هذا أنها لا تسمح بقيام منظمات لحماية مصالح العمال أيا كان نوعها ، ومن ثم كانت تنظر لأى تكتل تعاونى على أنه « خروج » عن سيستها يجب أن يقابل بالردع والقمع •

وقد تولد من شدة الضغط على نقابات العمال أن غلبت عليها الصبغة الحزبية السياسية لتغطية الدوافع الاقتصادية[1] ، ثم اتخذت لنفسها أسلوب الجمعيات السرية لتجنب بطش السلطة الحاكمة ، وكان بطش الحكومة وعنفها مقاومة هذه النزعات نتيجة كذلك لشعورها بأن خطر الحركات العمالية يكمن نشاطها السياسى أكثر من نشاطها

---

(١) نولز : المرجع السابق صفحة ١٨٦ — ١٨٧ •

الاقتصـادى(١) ، وعندما قامت أول محـاولة ثورية عام ١٩٠٥ وباءت بالفشل ، كان هذ من العوامل التى دفعت بكثير من الأفراد نحو الحركة التعاونية ، وبخاصة أنها كانت قد انتشرت انتشارا كبيرا — نسبيا — فى السنين القلائل حتى قيام الحرب العالمية الأولى • وعنـد قيام الثـورة البلشفية اعترفت الحكومة المؤقتة (عام ١٩١٧) بفضل الحركة التعاونية وكلفت القائمين عليها بالاشراف الاقتصاد القومى(٢) • ولـكن سرعان ما عدل البلاشفة عن ذلك عندما استتب لهم الأمر وقام المجتمع الجديد على الأسس الاقتصادية المعروفة •

السويد والنرويج :

نختم هذا العرض السريع العاجل باشارة الى السويد والنرويج ، لا لأنهما كانتا من الدول الصناعية الكبرى التى استعرضـنا ظروفها ، ولكن لأن التعاون فيهما يمثل الطريق الوسط الناجح ، فقد جمع بين المثل الديمقراطية الحقة وبين الاحتياجات لظروف الاقتصاد الاستهلاكى•

وقد أصـبح التعاون الاسـتهلاكى والانتـاجى اليوم فى السويد والنرويج نموذجا يحتذى به ودليلا واضحـا على مـدى ما يمكن أن تحققه التجربة التعاونية من نجاح اذ ارتفع الوعى الاجتماعى والثقـافى وظفرت الحركة مع ذلك بتأييد الحكومة •

فقد كان من أثر تشجيع الحكومة للحركة التعاونية فى النرويج أن

---

(١) من بين التنظيمات العمالية السرية حزب البلشفيك Blosheviki الذى كان له الفضل فى التنظيم الأول لثورة ١٩١٧ .
انظر كتاب : M.S. Miller : Economic Development of Russia. King and Son, London, 1827), pp. 235 and 285-292.

(٢) بوجارديس : المرجع السابق صفحة ٣٤ .

أصبحت الجمعيات التعاونية تمتلك ٩٩٪ من مصانع منتجات الألبـــان ، وجزءا كبيرا من انتاج اللبن والبيض • وكثيرا من المنازل التعاونية والمتاجر الاستهلاكية[١] • وقد حققت النرويج نتائج عملية مدهشة بسلوك جمعياتها التعاونيـــة الطريق الوسط الذى يجمع بين مصلحة المســتهلك فى خفض الأسعار ومصلحة المنتج فى البيع بأسعار عالية ، ذلك باتباع طريقة الجمع بين االجمعيات التعاونية الاستهلاكية وجمعيات الانتاج والتسويق وجعــل أعضاء مجلس الادارة ممثلين فى المجلسين[٢] (الانتاجى والاستهلاكى) وبذا يكونون ملمين بوجهتى نظر المستهلك والمنتج ويكون التعاون فى هذا النموذج وسيلة للتوفيق بين وجهتى النظر لكلا الفريقين من جانب ولصالح الاقتصاد القومى من جانب آخر •

واقد لعبت الحكومة الســويدية دورا ايجابيا فى تشـــجيع المنازل التعاونية فقللت تدريجيا من نسبة المنـــازل المملوكة ملكية عامة ، حتى أصبحت المبانى السكنية التى تقيمها الجمعيات التعاونية بمساعدة الحكومة تسهم بدور كبير فى تيسير حياة الأفراد واستقرار معيشتهم : ولم تقتصر هذه المبانى على العاصمة بل انتشرت فى كثير من المدن الأخرى والمناطق الريفية[٣] وتشير الاحصائيات الى أن ٩٠٪ من سكان أوسلو يعيشون فى منازل حكومية أو فى منـــازل بنتها الجمعيات التعـــاونية بمســـاعدة

---

(١) Ogg and Zink : Modern Foreign G... vernments, (London, McMillan, 1957, p. 781).

(٢) Bogardus المرجع السابق صفحة ١٩ .

(٣) Ogg and Zink المرجع السابق صفحة ٧٨٢ .

الحكومة[١] ، أما فى الناحية الانتاجية فنجد كذلك الأثر الواضح للتعاون فى القطاع الزراعى ، اذا أن ٩٠٪ من الألبان تنتجها الجمعيات التعاونية تحت رقابة الحكومة ومساعدتها كما شمل النشاط التعاونى فى جميع أنواع الانتاج المحلى تقريبا وبخاصة السلع الشائعة الاستعمال بين المستهلكين كالملابس والأدوية والأجهزة المنزلية الصغيرة .

---

(١) N. Herlitz, Sweden : A Modern Democracy on Ancient Foundation (Minneapolis 1939), p. 56.

المبحث السابع

تعريفات علمية للتعاون

تعريفات علمية للتعاون :

ان محاولة تعريف التعاون تعريفا علميا يجد من الصعوبة ما وجدته جميع المحاولات التى بذلت لوضع تعريفات علمية متفق عليها للألفاظ التى تعلق على مختلف العلوم الاجتماعية ، وذلك لأن هذه العلوم تختلف عن العلوم الطبيعية من حيث أنها تنهج منهج الاستقرار وتجميع المشاهدات وملاحظتها على أساس من المقارنة والموازنة واستنتاج الظواهر المشتركة بينها واستخلاص القواعد العامة منها وهذه اذا كانت تنطبق على حالات معينة فقد لا تنطبق على حالات أخرى تدخل فى المفهوم العام للفظ • ومما يزيد فى هذه الصعوبة عند وضع اصطلاح علمى متفق عليه فى العلوم الاجتماعية ان هذه العلوم تستمد مواردها من حقائق تقوم على تصرفات الجنس البشرى المختلفة وعلى مفاهيم ذهنية تختلف باختلاف الظروف والبيئات ، كما تقوم على تجارب وخبرات مرت بها مجتمعات كانت تبنى سلوكها على أساس تصور خاص لأهداف ومثل خاصة ، وهذه الأهداف والمثل قد تتغير مع مرور الزمن وتتطور مع تطور الأجيال ، حتى تأخذ أوضاعا جديدة تختلف عن الأوضاع القديمة ، ويصبح التنظيم الحديث الذى يسير عليه المجتمع أوفق له بمصالحه من التنظيم القديم الذى بدأ نشاطه عليه •

ولعل ما يوضح صعوبة وضع تعريف علمى لحالة أو ظاهرة اجتماعية مانجده فى تعريف الديمقراطية مثلا ، فهذا اللفظ كان له منذ فجر التاريخ

دلالة معينة ، حين كانت بعض المجتمعات القديمة تمارس نوعا من التنظيم السياسي والاجتماعي وتطلق عليه اسم الديمقراطية ، ثم تعاقبت الأجيال وتبدلت الظروف فسار كل مجتمع فى طريق اقتضته الظروف الخاصة به ، وتوالت الأحداث وقامت الثورات والانقلابات وتبدلت ظروف وبيئات، وظهرت نظم وأنواع جديدة من النشاط فى حياة الأفراد ، كما ظهرت أديان كان لها أثرها البالغ فى تكييف القيم الأخلاقية ، ومن وحى تلك القيم قامت فلسفات وأفكار اجتماعية وسياسية جديدة ، منها ما انتشر فى بقاع متعددة من الأرض فاستقت منها شعوب ما يتلاءم مع حاجاتها ومقتضيات بيئتها ، أو نبذتها وعارضتها شعوب أخرى بسبب أو لعدة أسباب •

مفهوم الديمقراطية :

ومن ثم أصبح مفهوم الديمقراطية مرنا يتسع لألوان مختلفة من التنظيم لا تقف عند حد ، وأصبحنا عاجزين عن تحديد معنى دقيق علمى واضح لماهية الديمقراطية ولهذا عقدت مؤتمرات دولية عديدة للعلوم السياسية ، وحاول كبار الفلاسفة من دول العالم وأئمة علم السياسة فى شتى الجامعات أن يضعوا تعريفا يقع عليه الاتفاق فلم يجدوا هذا التعريف ، وبقى لفظ الديمقراطية وظل حتى اليوم يعطى مفهوما غير محدود ، ويطلق على نظم تتباين وتختلف تمام الاختلاف فى أسلوب الحكم ودرجة تمرس الأفراد به من حيث أنه حقهم كما هو الأساس القديم لفكرة الديمقراطية فنجد الدول الشيوعية الحديثة تسمى نفسها ديمقرطيات شعبية وتعنى أو تكنى بذلك عن أنها بلغت أعلى مراتب التنظيم الديمقراطى للحكم ، مع أننا نعلم أن مثل تلك الدول تنعدم فيها الحريات الشخصية ، ومن ناحية أخرى نجد دولا تطلق على نفسها اسم دول العالم الحر ، ومع ذلك يسودها نوع من التنظيم السياسى يضع السلطة فى أيدى فريق من ذوى

النفوذ المادى أو الطبقى . ونجد دولا أخرى يسودها نظام الأحزاب والانتخابات والبرلمانات ، وتسودها من الناحية النظرية المساواة فى الحقوق المدنية والسياسية لجميع الأفراد ، ولكنها عند تطبيق الديمقراطية بصورة عملية ترتكب شتى ألوان الضغط والاساءة الى أفراد الشعب باسم حكم الأغلبية .

هذا المثال وغيره كثير يوضح أن الخبرات والتجارب العملية فى ميدان الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات واختلاف المفاهيم التى تضفيها المجتمعات على ظاهرة اجتماعية أو حالة معينة . فنجد أساليب متباينة يطلق عليها اسم واحد مع أنها تختلف فى كثير من التفاصيل ، وقد تختلف أحيانا فى الجوهر وبخاصة اذا جاء هذا المفهوم ممتزجا أو متأثرا بمثل وقيم وفلسفات مغايرة للمثل والقيم والفلسفات التى تسود المجتمعات الأخرى .

وضع تعريف علمى للتعاون :

كذلك الحال بالنسبة لكلمة التعاون ووضع تعريف علمى لها بحيث يكون جامعا مانعا ، فقد نشأ التعاون مجرد فكرة وفلسفة اجتماعية معينة قامت فى ذهن البعض ، ثم تغيرت التفصيلات التطبيقية لتلك الفلسفة على ضوء التجارب العملية والظروف المحيطة ، ثم أظهرت التجارب نواحى جديدة فى مفهوم التعاون واختلفت التطبيقات باختلاف المجتمعات ، ثم تبلورت الأفكار المستوحاة من التجارب فأخذت طابع مثل جديدة يطلق عليها اسم « التعاون » ثم سارت بعض الدول فى طريق يختلف عن الذى سار فيه غيرها من الدول ، فنجح البعض وفشل الآخر ثم جاء الباحثون والدارسون وعلماء الاقتصاد والاجتماع بعد حوالى قرن من التجارب التعاونية وحاولوا وضع تعريف شامل للتعاون ، فوجدوا أنفسهم أمام عدد كبير من « النظم » والفلسفات والأفكار والتجارب والتعريفات

والاصطلاحات التى وضعها السابقون . فوقفوا حائرين ازاء وضع تعريف علمى دقيق يشمل جميع ألوان التعاون ، ويمكن تطبيقه على جميع النظم والتجارب والمشروعات والأفكار التعاونية . ولكن من حسن حظ «المثل التعاونية» أن التعريفات المختلفة التى وضعت لتفسير التعاون تتفق مع المفهوم العام لكلمتى التعاون والروح التعاونية . فانه على الرغم من اختلافهما فى بعض التفصيلات التطبيقية ، لا تتعارض فى الجوهر ، وهذا مما ساعد على انتشار الدراسات التعاونية وعلى استمرار فكرة التعاون من حيث هى أسلوب صالح لتنظيم حياة الجماعة .

معنى التعاون :

اذا نظرنا الى الألفاظ من حيث تأثيرها النفسى فى سامعها أو من حيث مدلولها الذهنى وما يرتبط بها من خير أو شر ، وجدنا أن كلمة التعاون من المشتقات التى تترك نوعا من الاستجابة النفسية الطيبة فى الفرد ، وتوقظ فيه شعورا أخلاقيا ايجابيا(١) . فالعون والمعونة والاعانة والمعاونة كلها ألفاظ تدل على عمل طيب يسديه فرد لآخر ، أو جماعة وأخرى ، أو عدة أفراد أو جماعات . ولهذا كان لهذه الكلمة من الوقع النفسى ما يرتاح اليه الضمير ، لأنها تعطى على التو فكرة التضامن والتساند والتعاضد ، وما يستتبع ذلك من معانى القوة والايثار دون الأثرة وما اليها من المعانى التى تتصل بالنزعة ، كما تترك انطباعا ذهنيا يضع العمل المشترك من أجل تحقيق نتيجة ايجابية فى اطار أخلاقى جميل ، اذ يندر

---

(١) مثال ذلك كلمات الرحمة والشفقة والعطف — فلكها مدلولات خيرة أخلاقية بخلاف كلمات « البطش » و « الاعتداء » و « الايذاء » فهى تقترن فى ذهن الفرد بمعان غير أخلاقية لما تنطوى عليه من شر .

أن يقترن لفظ « التعاون » فى الذهن بالعمل المشترك من أجل غاية(١) منكرة أو جريمة اجتماعية ، وما الى ذلك من ألوان الشر .

ونظرا لما لهذه الكلمة من وقع طيب على أسماع الأفراد ، نجدها رنينا هاما فى الفلسفات الاجتماعية والأخلاقية ، بل أصبحت فى شتى الشعارات والدعوات السياسية أكثر الكلمات دورانا على الألسنة ، لأن هذه الشعارات والدعوات تقوم على التجارب بين الأفراد ، وتضافر الجهود من أجل تحقيق المصلحة العامة أو المتبادلة ، وما من عاقل يرفض « التعاون من أجل الخير المتبادل » وما من كلمة تحمل من الاغراء بالعمل الجماعى مثل ما تحمل كلمة « التعاون » .

واذا رجعنا الى هذه الكلمة فى اللغات المشتقة من اللاتينية ، وجدناها تعطى معنى صريحا للعمل المشترك ، فكلمة Co-operate الانجليزية ، أو كلمة Coopérer الفرنسية ، مكونة من مقطعين : co ومعناها فى اللاتينية(٢) « مع » أو « معا » أو « بالتبادل » أو « بالاشتراك » ، وكلمة Operate (٣) بمعنى يعمل (باللاتينية Operari — والعمل Opus وفى الألمانية نجد كل المرادفات لكلمة التعاون تعطى فكرة والعمل المشترك مثل (Mitwirken أى يعمل مع) وكلمة(Zusammenwirken أى العمل سويا) وكلمة Zusammenarbeit بنفس المعنى(٤) .

---

(١) عادة يطلق على هذا العمل لفظ التآمر — وواضح أن كلمة التآمر يغلب عليها الاتفاق على عمل من أجل تحقيق هدف انقلابى أو ضار بالفرد أو المجتمع .

(٢) Mit — With; Zusammén — together; work and arbeit — work together; Jointly, mutually.

(٣) استعمل كلمة operate فى معانى طبية وجراحية وعسكرية وتجارية

(٤) Co-(Latin) — the from of Cum — used before vowels meaning with,

ونظرا لما يجب أن ينطوى عليه معنى «التعاون» فى رأينا من الايحاء بفعل الخير ، والتآزر عليه ، نجد الأديان والشرائع تحث عليه من حيث أنه أسلوب يجب اتباعه فى هذه الحياة ، وفى معاملات الانسان لأخيه الانسان . ففى الديانة المسيحية اشارات وتوجيهات تدعو الى التعاون مثل «احملوا بعضكم أثقال بعض» و «مهتمين بعضكم لبعض اهتماما واحدا» «لاينظر الانسان الى ما هو لنفسه بل الى ما هو للآخرين أيضا» . وفى الدين الاسلامى يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» ويقول : «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : «الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» و «خير الناس أنفعهم للناس» و «يد الله مع الجماعة» و «ان الله يحب من عبده اذا كان بين أصحابه أن لا يتميز عليهم» فالأديان(١) — وهى أعلى مراتب المثل الاخلاقية والاجتماعية التى يتخذ منها الفرد فلسفته فى الحياة — تحث على التعاون والعمل المشترك من أجل خير الجماعة .

التعاون والفلسفات السياسية :

وكما تدعو الأديان الى التعاون وتحث عليه ، نجده كذلك من الأركان الهامة التى استندت اليها الفلسفات السياسية كما عرفناها ، وكما نقلها الينا مؤرخو المذاهب والفلسفات السياسية القديمة . ففى المجتمع الاغريقى القديم ، كان التعاون على الرغم من مساوىء الرق والنزعات الانفصالية التى أدت الى استمرار الصراع بين الوحدات السياسية (المدن) فى هذا المجتمع — أساس الحياة الاجتماعية فى الدولة ، سواء فى تصور فلاسفة الاغريق للحياة السياسية المثلى ، أو فى النظم التطبيقية والدستورية التى

---

(١) وهكذا وردت مثل هذه المعانى فى جميع الأديان السماوية .

كانت سائدة بالفعل ، فقد ظلت فكرة استمتاع كل مواطن بحق المشاركة فى شئون مجتمع متجانس هى الطابع المميز لاتجاهات الفكرة الاغريقى[١] وفى نطاق هذه الحدود لفكرة الحياة المشتركة المتجانسة فى المدن الاغريقية ، برزت فى ذهن الاغريق دعامتان متلازمتان يقوم عليهما كل نظام سياسى لهم ، وهما الحرية واحترام القانون[٢] وهذا دون شك يدل على اعتراف المجتمع بضرورة التضامن من حيث أنه خير وسيلة للوصول الى التنظيم السياسى الأمثل حيث الحرية « الاجتماعية » مكفولة ، وحيث القانون المنظم لحياة الجماعة محترم ، وفى هذا يقول المؤرخ السياسى جورج سابين ولقد كانت أوجه نشاط المدنية الاغريقية تؤدى عن طريق تطوع المواطنين بالتعاون وكان محور هذه المعاونة هو حرية بحث السياسة العامة ومناقشتها من جميع نواحيها[٣] .

وهنا يتضح لنا مظهر اجتماعى من مظاهر التعاون ، وهو المناقشة البناءة الرشيدة العاقلة ، والاعتراف بأنها أفضل وسيلة لاعداد المسائل الهامة والعمل على تنفيذها ، ومعنى الايمان بضرورة التعاون اعتراف المجتمع بأن خير الوسائل للتنظيم الاجتماعى وأحسن النظم السياسية لا بد أن يتولد عن جهد مشترك لأشخاص عديدين ، وقد كان لهذا الايمان الفضل الأول فى جعل مدينة أثينا الاغريقية مهدا للفلسفة السياسية .

ثم ان فلاسفة الاغريق تصوروا النظم المثلى للحياة الاجتماعية أشادوا بالجوانب العملية والأخلاقية للتعاون الاجتماعى . ومنهم من تعمق فى

---

(١) جورج سابين ، تطور الفكر السياسى (ترجمة جلال العروسى) مطبعة المعارف صفحة ١٨ .
(٢) صفحة ١٩ من المرجع السابق .
(٣) صفحة ١٩ من كتاب جورج سابين — تطور الفكر السياسى (ترجمة جلال العروسى) مطبعة المعارف .

جزئيات الحياة الاقتصادية فى المجتمع ليستنتج أن التعاون هو الأساس الذى تبنى عليه الحياة[١] ، فلسفة أفلاطون مثلا نجده يقول «ان الجماعات ظهرت قبل كل شيء نتيجة للحاجات البشرية التى لا يمكن اشباعها الا حين يكمل بعضهم بعضا ، فللناس حاجات كثيرة ، ولا يوجد من يستطيع العيش على أساس الاكتفاء الذاتى ، ومن ثم كان لزاما أن ينشد كل من الآخر العون والمبادلة »[٢] .

على أن هذه المبادلة التى يعنيها أفلاطون ليست قاصرة على المبادلة الاقتصادية فانه يتخيلها على أساس أنها المجال الاجتماعى الواسع لاجراء تحليل عام يشمل كل صور اتصال الناس بعضهم ببعض فى المجتمع ، فحيثما توجد الجماعة فهناك حتما نوع من اشباع الحاجات ومن تبادل الخدمات لتحقيق هذه الغاية . وكلما اتسع نطاق التعاون الاجتماعى (أو التبادل والمنافع المتبادلة) قرب المجتمع من التنظيم الأمثل ، وبمثل هذا التصور « ألقى أفلاطون ضوءا على ناحية من نواحى الجماعة عنده على أساس أنها نظام الخدمات يقوم فيه كل عضو بقدر من الأخذ والعطاء، بمعنى أن عليه خدمات يجب أن يؤديها بالتعاون مع غيره ، واذا كانت الدولة تكفل له الحرية فليس الغرض من ذلك مجرد تمتعه بارادة حرة ، بل الغرض من ذلك كذلك تمكينه من أداء الخدمات المطلوبة منه[٣] .

وقد نهج أرسطو فى تصوير المجتمع نهجا آخر يعرف بالمنهج

---

(١) وهذا طبعا مع الاعتراف بما وقع فيه بعضهم من اخطاء ــ أو مانادوا به من آراء قد ينبذها المجتمع الحديث كالاعتراف بنظام الرق أو شيوعية الزواج والملكية عند أفلاطون .

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوى : أفلاطون ــ مكتبة النهضة (١٩٥٤) صفحة ١١٨ ــ ٢٣١ .

(٣) صفحة ٢٣٢ من المرجع السابق .

التكوينى فأبرز ظاهرة التعاون فيه على أنها حقيقة لابد منها فى تكوينه. ووصف الانسان بأنه حيوان سياسى ، وكان يعنى بذلك أنه مدنى واجتماعى بالطبع « ذلك لأن الانسان لا يمكن أن يتصور وحده منعزلا مطلقا ، ولهذا فلابد أن يوجد فى جماعة »(٢) . ويرى أرسطو أن الأسرة — لا الفرد — هى الوحدة الرئيسية فى المجتمع ، والأسرة مع غيرها من الأسر تتكون منها القرية ، واذا تعددت حاجات القرية ، واحتاجت الى غيرها من القرى تكونت عن ذلك الدولة ، ومعنى هذا أن ارسطو يرى المجتمع والدولة لا يمكن لاحدهما أن يقوم الا على أساس من التعاون بين الأفراد ، ولولا هذا التعاون لما كان مجتمع .

هذه الفلسفات السياسية القديمة ، لا تزال النبراس الذى تهتدى به النظريات الحديثة فى التنظيم السياسى على الرغم من تغير الظروف والبيئات والأفكار . فما دام هناك مجتمع وتنظيم سياسى ، فان التعاون الاجتماعى بمعنى تضافر الجهود لتحقيق المصالح المشتركة ، يعتبر الركن الهام فى تكوين المجتمع الواحد وربط أفراده بعضهم ببعض فى الدولة . « ويعنى بالمصالح المشتركة مجموعة العوامل المادية التى تربط الجماعة السياسية وتحضها على توثيق أواصر صلاتها والتمسك بكيانها السياسى »(١) . ويلاحظ أن لدول الديمقراطية الحديثة وان كانت تأخذ ببعض مثل الديمقراطية الأولى التى سادت العصر الذهبى لنظام المدنية ، الا أنها تقف اليوم عاجزة عن تطبيق تلك المثل وتحقيقها فى الناحية العلمية .

صحيح أنه قامت ثورات ضد الاستبداد فى عدد من الدول ، وصحيح

(١) دكتور عبد الرحمن بدوى . أرسطو (مكتبة النهضة ١٩٥٣) الصفحات ٢٦٤ — ٢٦٦ .

(٢) دكتور احمد سويلم العمرى) : بحوث فى السياسة (الأنجلو ١٩٥٣) صفحة ٨٥ .

أن غالبية الحكومات الحديثة قد اعترفت بمثل حقوق الانسان التى أعلنتها الثورة الفرنسية ، وصحيح أنه توجد حكومات برلمانية انتخابية فى أغلب الدول تطلق على نظمها اسم الديمقراطية .. ولكننا اذا دققنا النظر وعمقنا البحث ، وجدنا أن هذه الديمقراطيات الحديثة تشوبها مساوىء اجتماعية تتفاوت درجاتها ولا تزال هذه المساوىء فى انتظار الحلول للوصول الى الأهداف الحقة التى تعبر عنها كلمة الديمقراطية .

ذلك لأن المثل العليا للديمقراطية لا تتحقق الا حيث تتحقق الحرية والمساواة ويتحقق حكم الشعب بحيث يكون خاليا من استبداد طبقة معينة أو تسلط فئة أو طائفة ، وبحيث تسود فيه المساواة المطلقة بين الأفراد فى الحقوق والواجبات وفرص الحياة ، حتى يشعر كل بذاته وكرامته ، وقد نجحت الديمقراطيات النيابية الحديثة فى تحقيق نوع من المساواة السياسية فى ظل النظم البرلمانية ، ولكن أغلبها مازال بعيدا عن تحقيق المساواة الاقتصادية بين أفراد المجتمع الواحد[1] . ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية حقة ما دامت هذه الفوارق الصارخة فى فرص الكسب والتعليم قائمة ، وما دامت الأقلية المتخمة تظفر من الحكومات بمزيد من الرغد والرفاهية ، بينما تكدح الملايين من سواد الشعب لكسب ما يقل فى الأحيان عن سد الرمق ، فالديمقراطية ليست مجرد اعطاء حق الانتخاب على اسس جغرافية ، ولا هى مجرد احتساب أرقام الأغلبية والأقلية ، وكل نظام حكم

---

(١) يضيق المجال فى هذه المقدمة القصيرة عن سرد تفاصيل نقاط الضعف فى الديمقراطيات الحديثة يراجع على سبيل المثال — دكتور محمد عبد الله عنان . المذاهب الاجتماعية الحديثة (١٩٥٦) صفحات ٤٢ — ٤٦ ودكتور محمد يحيى عويس . الاشتراكية (المعارف ١٩٥٥) صفحات ١٤ — ٤٥ ودكتور بطرس غالى ودكتور خيرى عيسى . المدخل فى علم السياسة (الأنجلو ١٩٥٩) صفحات ٦٥٥ — ٦٦٢ .

يعجز عن حل المشاكل الاقتصادية التى يواجهها المجتمع لا يستحق أن يطلق عليه اسم الديمقراطية •

ثم ان الاحساس أو الاعتراف بنواحى الضعف فى الديمقراطيات الرأسمالية الحديثة يثير فى نفوس الأفراد مشـاعر متباينة ، كانفعالات الغضب التى تولد الرغبة فى الثورة على الأوضاع القائمة ، ومنها ما هو أقل انفعالا فيكتفى باعلان الصيحة مناديا بضرورة الاصـلاح والتهديد بالعواقب الوخيمة اذا تفاقمت الامور ، وكالشعور بالضعف أو العجـز عن المقاومة أو المطالبة بالاصلاح أو الأمل فيه ، فيجد صاحبه فى فضائل الدين مسدة أو مدعاة للقنوع والصبر وانتظار اصلاح الحال من الله ، وقد ينحرف الشعور بصاحبه الى القاء المسئولية على الحكومة ، فيرى أن من واجبها تغيير النظام الاجتماعى القائم ناسيا أو متناسيا أن الحكومات قد تتكون من أفراد ينتمون الى طبقة تجد مصلحتها فى بقاء الحال على ما هو عليه •• ومن الوان هذه المشاعر ما يدفع فردا أو عدة أفراد الى التفكير فى مصلحة الطائفـة التى ينتمى اليها دون الاهتمـام بغيره من أفراد أو طوائف المجتمع • وأخيرا هناك المشاعر التى تولد الرغبة فى الأخذ بمبدأ « لا سبيل الاصلاح الجماعة الا اذا أصلحت امورها[1] بنفسها » وهذا يفسر بمعنى القيام بعمل ايجابى مشترك يعتمد فيه الجميع على جهودهم المتضافرة •

وهكذا تولدت الاتجاهات المختلفة لاصلاح مساوىء الديمقراطية الرأسمالية الحديثة •• فكان منها الاتجاهات الثورية كالشيوعية الماركسية والاشتراكية السندكالية[2] • وكان منها الاتجاهات الحزبية شبه الثورية

---

(١) God help those who help themselves.

(٢) الاشتراكية السندكالية ، هى الاشتراكية النقابية وهى نوع من الاشتراكية الثورية .

التى تكتفى بالثورة الكلامية وتجاهر بضرورة الاصلاح ، والاتجاهات المشوبة بالنزعة الدينية التى تحاول المزج بين مبادىء الاصـلاح المادى والمثل الأخلاقية . والأفكار التى تنادى بالتدخل المباشر الايجابى بواسطة الحكومة فى جميع القطاعات الاقتصادية الهامة ، ومظهرها أحزاب العمال والفلاحين والنقابيين وغيرها من الطوائف والهيئات التى يقتصر نشاطها على محيط مصالحها الخاصة ولا يتعداه الى مصالح بقية أفراد المجتمع .. ثم كان منها الفكر التعاونى وهو يقوم على أساس تضـافر الأفراد وبذلهم الجهد المشترك ليساعدوا أنفسهم بأنفسهم ولكى يحققوا هدفا مشتركا بغض النظر عن ميولهم الطائفية أو العنصرية أو المهنية .

ونستخلص مما سبق أن التعاون بمعنى تضافر الجهود للعمل الجماعى ولتحقيق هدف مشترك قديم قدم الحضارة اما تطبيقه على جمعيـات تعاونية كتلك التى نشاهدها اليوم ، فيرجع تاريخه الى الثورة الصناعية وما تمخضت عنها عن مساوىء اجتماعية .

لقد كانت الجهود السابقة فى مضمار التعاون محاولات من التنظيم الاقتصادى تقوم فى نطاق ضيق ولهدف محدود ، ولم تترك وراءها أثرا فكريا يخلق حركة اجتماعية ، فمثلا كان سوء الحال يدفع المحبين للاصلاح وأهل الخير الى محاولة مسـاعدة الفقراء بشراء مواد غذائية وتوصليها اليهم حيث تباع بسعر التكلفة أو بيناء مطاحن للغلال يستعملونها دون مقابل وما الى ذلك من الخدمات والمساعدات الانسانية .

لقد القينا فى دراستنا عند منشـأ الحركة التعاونية فى العصـور الحديثة نظرة عاجلة على الأوضاع التى خلفتها الثورة الصناعية والآثار الاجتماعية السيئة التى كانت الى حد كبير الدافع المباشر لقيام الحـركة

التعاونية . وعالجنا الآثار فى الدول التى تأثرت قوة أو ضعفا بالتطور الصناعى ، وتناولنا ما حدث فى بريطانيا بشىء من التفصيل لأنها كانت أكثر الدول تأثرا بمساوىء الثورة الصناعية وبمحاسنها ، لأن الحركة التعاونية التى نشأت فيها سرعان ما صارت الهدى الفكرى الذى سارت عليه حركات أخرى فى شتى دول العالم ذلك لأن قادة الفكر التعاونى فى انجلترا بما كان لديهم من جرأة فكرية فى عصر كان يسخر بجهودهم وآرائهم كشفوا دون قصد عن نواحى الضعف فى النتائج الفعلية لتطبيق المفاهيم المختلفة للحركة التعاونية ، وبذلك مهدوا للأجيال اللاحقة السبيل لتجنب ما وقعوا فيه من أخطاء ، والسير بالتعاون سيرا ايجابيا يتفق مع مطالب المجتمع ويتابع تطوراته .

وسنورد فيما يلى بعض النصوص الانجليزية للتعاريف التى وردت فى كتابات مشاهير الباحثين فى التعاون مع ترجمة عربية لها ، لنظهر مدى ، تفاوت المفاهيم بين تعريف وآخر ، ومع ذلك نرى أن دراسة التعاون لن تستفيد كثيرا من نقد هذه التعريفات أو الاشادة بها ، ولا من عمل مفاضلة بينها على أساس أن بعضها أكثر شمولا « لأنواع » التعاون من غيره ، وبعضها ينطوى على قصور فى مفهومه لأنه تجاهل هذا الجانب أو ذاك وكل ما سنستعيده من ذلك هو استخلاص الخصائص المشتركة فى هذه التعاريف واستنتاج الظاهرة الغالبة على ماهية التنظيم التعاونى ، وسننظر بعد ذلك فيما بقى من الاضافات التفصيلية التى أوردها كل على حسب مفهوم التعاون عنده وتقديره لما يشترط أن يتوافر فى التنظيم التعاونى ، فان كانت هذه الاضافات لا تتعارض مع الجوهر العام لمبدأ التعاون تلقيناها بالقبول أما اذا كانت هذه الاضافات والتفصيلات من قبيل المبادىء التى تحكم ادارة المشروعات التعاونية ، فقد جعلناها موضع اهتمامنا فى بحوث أخرى ، ولهذا أغفلنا الاشارة اليها هنا ، وسنجد من

بين التعاريف التى سنوردها فيما يلى — تعريفات يظهر عليها الاهتمام بجانب خاص من التنظيم التعاونى • فبعض الكتاب يرى فى التعاون نظاما للاصلاح الاجتماعى وبعضهم يعرفه ويصفه بماهيته كما هو موجود بالفعل فى بعض الدول ، وبعضهم يهتم بالجانب النظرى ، فيعرف التعاون من حيث فلسفته التحليلية أو بعبارة أخرى من حيث ما يجب أن يكون عليه ليستحق اسم التعاون ، وفى نهاية هذه المقدمة سنورد جدولا يجمع الخصائص الاقتصادية الرئيسية للمشروعات التعاونية كما وردت فى التعريفات التى أوردها الكتاب فى موضوع التعاون •

ملحق

خاص ببعض التعاريف الحديثة عاون

كما وردت فى كتابات الباحثين فى التعاون

التنظيمات التعـــاونية تنظيمات شعبية ، تستطيع أن تقـوم بدور مؤثر وفعال فى التمكين للديمقراطية السليمة . ان هذه التنظيمات لابد أن تـكون قوى متقدمة فى ميادين العمـل الوطنى الديمقراطى ، وأن نموها معين لا ينضب للقيـــادات الواعية التى تلمس بأصابعها مباشرة أعصـاب الجماهير وتشـــعر بقوة نبضـها .

ان تعاونيات الفلاحين فضلا عن دورها الانتـــاجى هى منظمـــات ديمقراطية قادرة على التعرف على مشـاكل الفلاحين وعلى استكشاف حلولها .

Cooperatives are popula· organizations, and can play an effective and influential ro!· in promoting sound demorcracy. They should form a vanguard force in the various fields of national democratic action and development provides an endless source to the concious leadership that directly feels the reactions and responses of the masses.

Besides their productive role. the farmers' cooperatives are democratic organizations capable of recognising and solving the problems of the farmers

الميثـاق

The National Charter presented by President Gamal Abdel Nasser at the Inaugural Session of the National Congress of Popular Power, May 1962.

الجمعية التعـــاونية هى تنظيم اقتصادى ضمن نظام المنافسة يهدف الى الاصـلاح الكلى أو الجـزئى لنتائج سوء توزيع الثروة

«A Cooperative association is an economic institution which within the existing sstem of free competition aims to correct wholy or partly the natural imperfections of the distribution of wealth».

جينو فالنتى

Ghino Valenti, quoted from Economic Theory of Cooperatin. Ivan V. Emblianoff, Washington, D.C. 1948, p. 18.

التعاون نظام اقتصادى ينبثق من المصلحة المباشرة للأفراد القائمين به لاشـــباع حاجاتهم من الســـلع والخدمات ويتخذ شكل مشروعات حرة يقيمها من يريدون الاستفادة من العمليات والنشاط الذى تقوم به تلك المشروعات بقصد تحســين حالتهم الاقتصـــادية أو ممارســـة مهنهم (١) .

«Cooperation is an economic system arising out of the direct interests, on the part of those participating in goods and services as such. It assumes the form of free undertakings established by those who desire to make use of the operations and activities themselves that are carried on by those undertakings for the purpose of pursuit of their occupation».

اندريه اورن

Andres Orne

Cooperative Ideals and Problems, translated by : J. Downie. Published by : The Cooperative Union Ltd., Manchester 1937 p. 2.

للحركة (التعاونية) غرض أسمى وأهم كثيرا من مجرد زيادة الرفاهية الاقتصادية للسكان — ان أهم وأعمق أهدافها هو النهوض بهم الى مستوى اخـــلاقى أعلى بأن تجعل أعضـــاء الجمعيـــات التعـــاونية أكثر كفاية وأكثر اســـتقلالا بل أكثر من ذلك تجعل منهم رجالا ونساء أفضل . (يقصد خلق مواطنين صالحين)

«A movement has a far higher far more important object than to increase the economic welfare of the population. Its most important and significant aim is to raise it to a higher moral moral standard, to make the members of the cooperative societies more effeicient and more independant, and above, all better men and women.

سيفيرين جورجنسن

Severin Jorgensen

Quoted from : Cooperation in Denmark.
By : A. Axelsen Driger, Copenhagen, Denmark, 1947, p. 2.

---

(١) يقصد التعاون الانتاجى بين أفراد مهنة معينة .

ان الذى يضفى صفة التعاونية على مشروع معين هو تعمد الارتقاء بالتعاون الى مرتبة مبـدأ للتنظيم ليدعم ويستخدم فى تحقيق تلك الأهداف التى من أجلها قام المشروع

«What makes an undertaking cooperative is the deliberate deviation of coiperation to the status of a principle of organisation to be fostered and employed for the purpose of realising those ob ects for the attaining of which the undertaking has been called into being».

هل وتكنر

F. Hall and W.P. Watkins Cooperative Union Ltd.

التعاونيات هى النظم الاقتصادية التى تحـاول عن طـريق مشروع جماعى أن تدعم أو تكمل النشاط التحصيلى أو الاستهلاكى لأعضـائها بقصـد الرغبة فى الحصـول على أشياء

«The cooperatives are the economics, which endeavour through a common business establishment to further or to complete acquisitive or consuming activities of their members»

بروفسور روبرت ليفمان

Prof. Robert Lifman

Qouted from : Economic Theory of Cooperation.

Same Reference, p. 26.

الجمعية التعاونية مشروع يمتلكه الأفراد الذين ينتفعون بخدماته — كما أنهم يقومون جميعا بالاشراف عليه ويقتسمون ما يجنيه المشروع بنسبة معاملاتهم مع الجمعية .

«Cooperative enterprise is one of which belongs to the people who use its services, the control of which rest equally with all the members and the gains of which are distributed to the member in proportion to the use which they make of its services».

تقرير اللجنة الامريكية عن التعاون باوربا

Reprt of the Inquiry on Cooperative Enetrprises in Europe, 1937.

Washington, United, State Government, Printing Office, 1937, p. 19.

الحـــركة التعــاونية هى حـــركة مشروعات تجارية ـ عالمية فى نطاقها ـ محلية فى أصـــلها ، يقـــوم فيها المســــتهلكون عن طريق التجمـــع الاختيارى بشراء أو انتـــاج السلع التى يحتاجون اليها لمنفعتهم الخاصة

«The cooperative movemen' is a business enterprise, worl wide in scope, but local in origin, whereby consumers in voluuntary associations purchase and produce for their own use the things they need».

جيو .س. مونر

Cooperative to-day and to-morrow
Canadian Survey by : Geo. S. Mooner,
Prepared for the Survey Committee, Montreal, 1938.

يمكن القول بصــــورة عامة بأن الجمعية التعــاونية الاســـتهلاكية تتـــواجد كلما أحست مجموعة من الأفراد بأن حاجتها المنفقة تدفعها الى الترابط الجماعى بغرض اشباع حاجاتها بصورة افضـــل عما يمكن تحقيقه بالمجهود الفردى لكل منهم

«In a borad sence a consumers cooperative society exists every time that a number ists every time that a number of persons, fealing the same need, join togther collectively to satisfy this need better than they could do by individual means.»

شارل جيد

Charles Gide.
Consumers' Cooperative Societies Translated from the French by. The Staff of the Cooperative Reference Library Dublin.
Cooperative Union : Manchester 1921. P. 1.

الجمعية التعــــاونية هى جمعية هدفها التجارة المشـــتركة تنشأ فى الأصل بين فريق من الضعفاء وتدار دائما بروح من أفكار الذات وبشـرط أن جميع من يقبلون القيام بواجبات العضـــوية يقتســـمون (الأرباح)

«An association for the purpose of joint trading originating among the weak and conducted always is an unselfish spirit on such terms that all who are prepared to assume the duties of

العائدة كل بنسبة مدى تعامله مع الجمعية .

membership share its rewards in proportion to the degree in which they make use of their association».

بروفسور . س.ر. فاى

C.R. Fay. Cooperation at Home and Abroad : Volume 1 to 1908 Staples Press : London. 1948. P. 5.

الجمعية التعاونية هى جمعية اختيارية من المشترين أو البائعين للسلع ولعنصر العمل بغرض تحسين الأسعار بالنسبة للشارين والبائعين — وذلك عن طريق تنظيم المشروع الخاص بهم اما للشراء أو للبيع .

«A Cooperative associaiton is a voluntary association of the purchasers of sellers of labor and of other goods with the aim to improve the puruhasers and sellers' prices and achieving it by an organization of their own enterprise respectively for buying or for selling».

مريانو مريانى

Mariano Moriani
Quoted from : Economic Theory of Cooperation.
Same Reference. P. 21.

يبدو من النظرة الاولى أن الجمعية التعاونية الاستهلاكية هى جمعية من المستهلكين تهدف الى الحصول بطريقة أفضل على كل أو بعض السلع اللازمة لاشباع حاجاتهم .

«A cooperative society for consumption appears at the first sight as an association of consumers for the purpose of procuring advantageusly all or some of the commodities necessary to satisfy th needs».

أرنست بواسون

Ernest Poisson
The Cooperative Republic Translated by : W. P. Watkins. Manchester, England. Cooperative Union, 1925.

الجمعية التعـــاونية هى منظمة اختيارية من الأفراد تجمعهم مصلحة مشتركة — تشكل ويسير العمل بها على أسس ديمقراطية بغرض تزويد الأعضاء (وهم العملاء والمولين فى نفس الوقت) بخـدمات بســـعر تكلفتها .

«A cooperative association is a voluntary organization of ,ersons with a common interest, formed and operated along democratic lines for the purpose of supplying serveices at cost to its members, who contribute both capital and business.

جامعة كاليفورنيا

University of California (1957) P. 4. Bulletin 758.
The principles of Cooperation.

الجمعية التعاونية الاســتهلاكية هى جمعية اختيارية ينظمها الأفراد على أسس ديمقراطية للحصول على حاجاتهم عن طريق العمل المتبادل حيث يكون الدافع الأول الانتاج والتوزيع هو خدمة الأفراد وليس الربح — وحيث يكون المبدأ القائم (لهــذا التنظيم) هو أداء العمــل المفيد يعود بالنجاح وبأفضل الجزاء

«A consumer cooperative so ciety is a voluntary association in which the people organize democratically to supply their needs through mutual action in which the motive of production & distribution is service, not proft, and n which it is the aim that performance of useful labor shall give success to the best if rewards».

جيمس بيتر وارباس

J. P. Warbasse
Cooperative Democracy. Harper & Brothers Publishers. New York & London. 1947. P. 7.

جدول احصائى عن

الخصائص الرئيسية للمنظمات التعاونية وعدد الكتاب

الذين ادرجوا تلك الخصـــائص ضمن تعاريفهم

الخصائص	عدد الكتاب
المنظمة التعاونية ــ مشروع	١٠
المنظمة التعاونية ــ اتحاد أفراد	٦
شرط التنظيم الاختيارى للجمعية	٦
لا تحديد لعدد الأعضاء	٥
مبدأ تكافؤ الأصوات	٣
مبدأ المساواة فى الحقوق والمسئوليات	٣
المساعدة المتبادلة (أو العون المتبادل)	٣
الجمعيات التعاونية نشأت من بين صفوف الضعفاء	٣
حق العضوية مقيد	٢
المساواة هى المبدأ الأساسى فى التعاون	٢
الخدمات تقدم بسعر التكالفة	٢
مصالح العمال عنصر أساسى فى التنظيم التعاونى	٢
المنظمات التعاونية تحقق الوفر لأعضائها	٢
نظام الانتاج الكبير من أهداف التعاون	٢
نوع معين من التنظيم بواسطة العمال وصغار رجال الأعمال	٢
الاعتماد على النفس فى الادارة أساس هام فى التنظيم التعاونى	٢
يدار التعاون لمصلحة أعضائه	٢
التعاون وحدة اجتماعية	٢
فائدة رأس المال محدودة	١
لا تدفع فوائد على اسهم رأس المال	١
التناسب فى المعاملات مبدأ أساسى فى التعاون	١
حق الاقتراع النسبى مبدأ أساسى فى التعاون	١
لا تقبل مساعدة الدولة من ناحية المبدأ	١
يفرض التعاون مساعدة الدولة له	١

الخصائص	عدد الكتاب
رسالة التعاون هى الغاء نظام الأرباح	١
الربح أحد الأهداف الرئيسية للتعاون الانتاجى	١
روح انكار الذات من الأسس الرئيسية للتعاون	١
يهدف التنظيم التعاونى الى المصلحة الترفيهية لأفراده	١
المصلحة المشتركة تدفع الأفراد للانتظام فى الجمعيات التعاونية	١
التجارة المشتركة (بالتضامن) من اسس تنظيم الجمعيات التعاونية	١
التعاونيات منظمات من البائعين أو المشترين	١
حق التمتع بخدمات الجمعية التعاونية مقصور على الأعضاء	١
عدد الأسهم التى يمتلكها العضو محدود	١
تخفيض الأسعار من أهداف الجمعيات التعاونية	١
من الأهداف الرئيسية للتعاون تحسين الظروف الاقتصادية لأعضائه	١
سيادة مبادىء العدالة فى الجمعيات التعاونية	١
هدف الجمعيات التعاونية توفير الخدمات لا تحقيق الربح	١
الغرض الأساسى لجمعيات التسويق التعاونية استقرار الأسواق	١
المنظمات التعاونية تمثل سبل تصحيح أخطاء التوزيع فى المجتمع	١
يوزع العائد بنسبة المعاملات	١
يدير الأعضاء الجمعية التعاونية	١
لابد من دفع عائد للأعضاء حسب معاملاتهم	١
يشترك جميع الأعضاء فى النشاط التعاونى	١
جميع الموظفين من أعضاء الجمعية التعاونية	١
يحصل الأعضاء على الأرباح كما يتحملون فى الخسارة	١

(١) Economic Theory of Cooperation Ivan V. Emelianoff «Thesis» Submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in the Faculty of Political Columbia University. Washing' D. C. (1948).

فهرس

صفحة

تمهيد ٧

المبحث الأول :

الثورة الصناعية وآثارها ٧

مقدمة ٧

فلسفة المذهب الحر والتطور الصناعى ... ١٠

المبحث الثانى :

ظهور الأفكار المناهضة للرأسمالية ١٣

سوء معاملة أصحاب الأعمال للعمال ١٣

مساوىء الرأسمالية والفكر الاشتراكى :... ... ١٧

المبحث الثالث :

بدء التفكير فى التعاون ١٩

انجلترا ١٩

روبرت أوين ٢٠

أوين ومفهوم الاعانة ٢٣

آراء أوين ونظرياته الاجتماعية ٢٤

تعاليم أوين والمشروعات التعاونية ٢٧

جمعية لندن التعاونية الاقتصادية ٢٧

مجتمع أوربستن ٢٧

مجتمع رالاهين ٢٨

صفحة

مجتمع كوينوود ٣٠
تقدير فلسفة أوين وآثارها ٣٠

المبحث الرابع :

معاصرو أوين وأتباعه ٣٤
وليم تومســـون ٣٥
العمل مصدر الثروة ٣٦
تقدير فلسفة وليم تومســون وآثارها ٣٨
دكتور وليم كنج ٤١
أهـداف وطرق الجمعيات فى رأى كنج ٤٥
(أ) الأهـــداف ٤٩
(ب) وسيلة تحقيق الأهـداف ٤٩
(حـ) صفات الأعضـــاء ٤٩

المبحث الخامس :

تجربة روتشديل وما بعدها ٥١
تجربة روتشديل ٥١
ما بـعد تجربة روتشديل ٥٨

المبحث السادس :

التعاون فى الدول الصناعية الأخرى ٦٣
فرنســـا ٦٣
الولايات المتحدة الأمريكيـة ٧٠
روسيا القيصرية ٧٣
السويد والنرويج ٧٤

صفحة

المبحث السابع :

تعريفات علمية للتعاون ٧٧
مفهوم الديمقراطية ٧٨
وضع تعريف علمى للتعاون ٧٩
معنى التعاون ٨٠
التعاون والفلسفات السياسية ٨٢
ملحق ببعض التعاريف الحديثة للتعاون ٩١
جدول احصائى عن الخصائص الرئيسية للمنظمات التعاونية ٩٩

رقم الايداع بدار الكتب ١٨٥٦ لسنة ١٩٧٠

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦